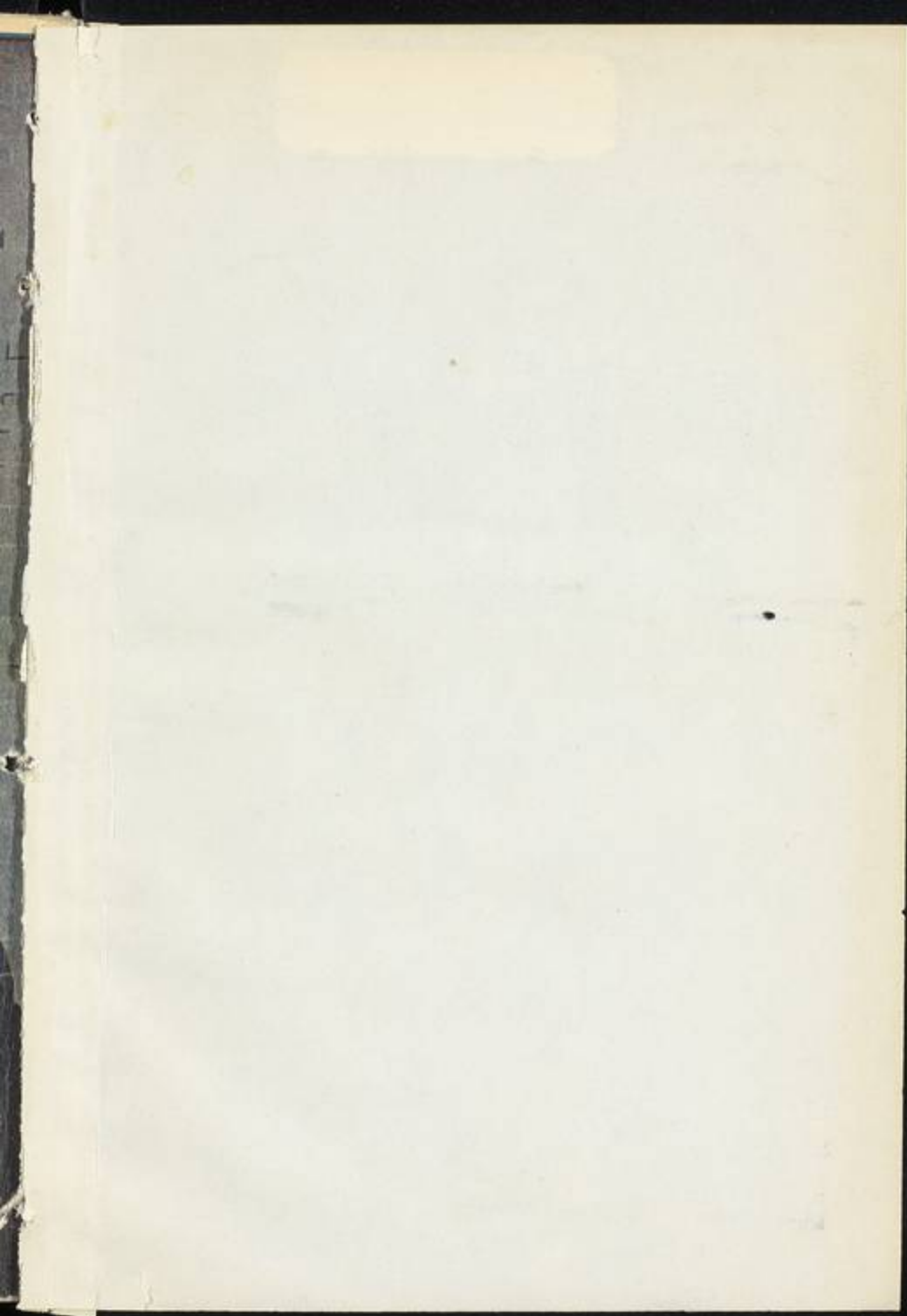




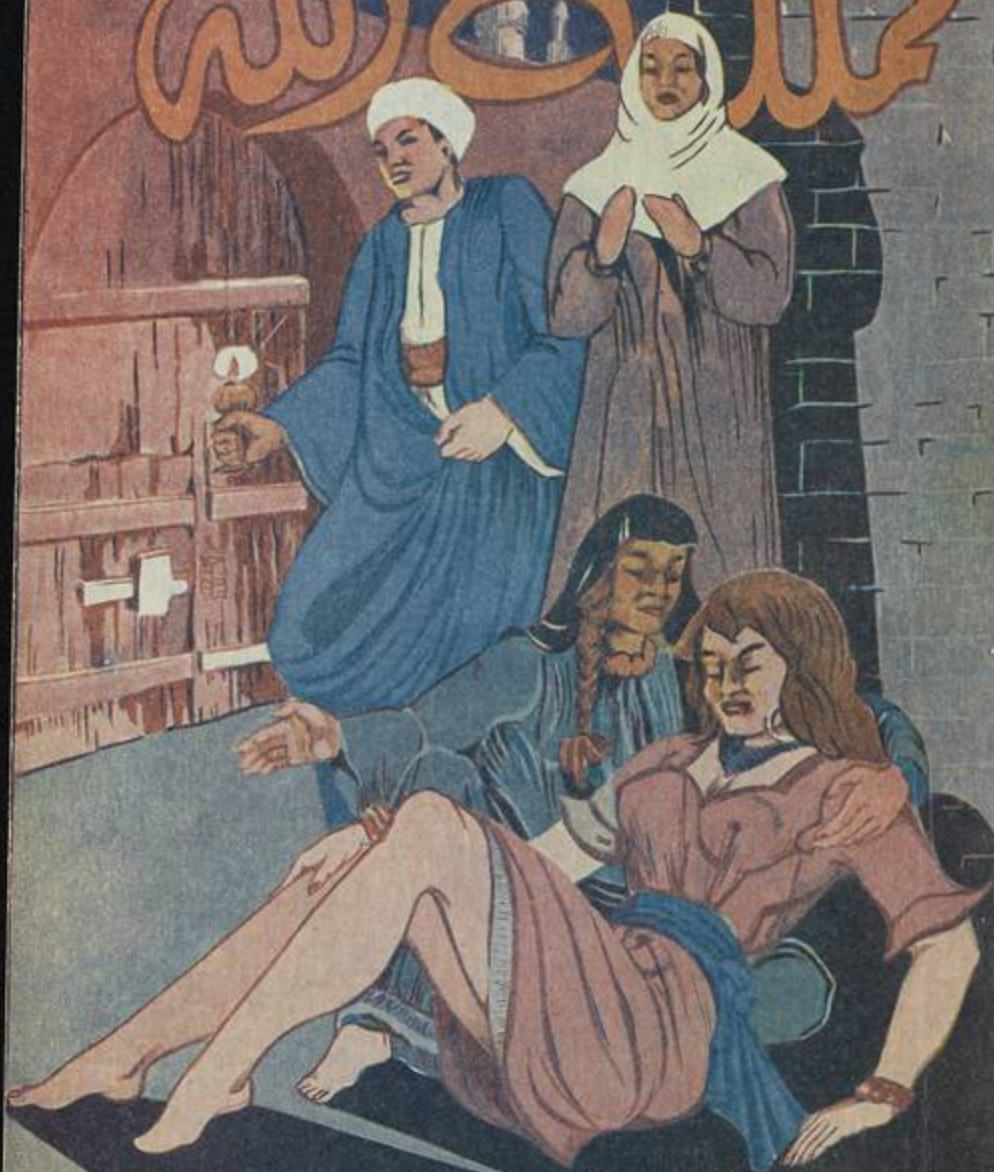
Princeton University Library



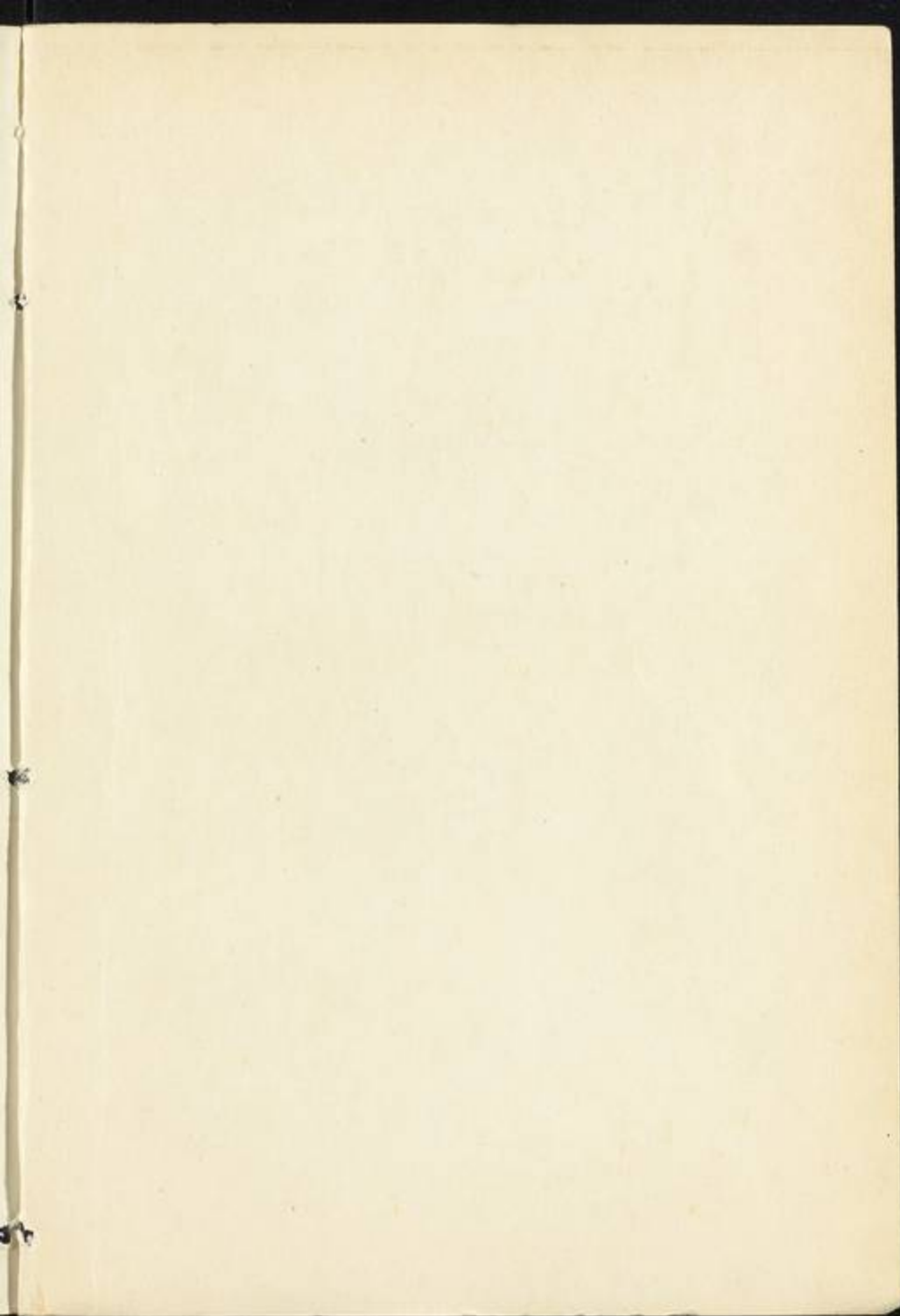
32101 072236613



مملكة الله



جاذبية صدقي



الى المستشرق الكبير
الأستاذ الدكتور ويدمار

مملكة الله مع تحييتي وتقديري واحترامي

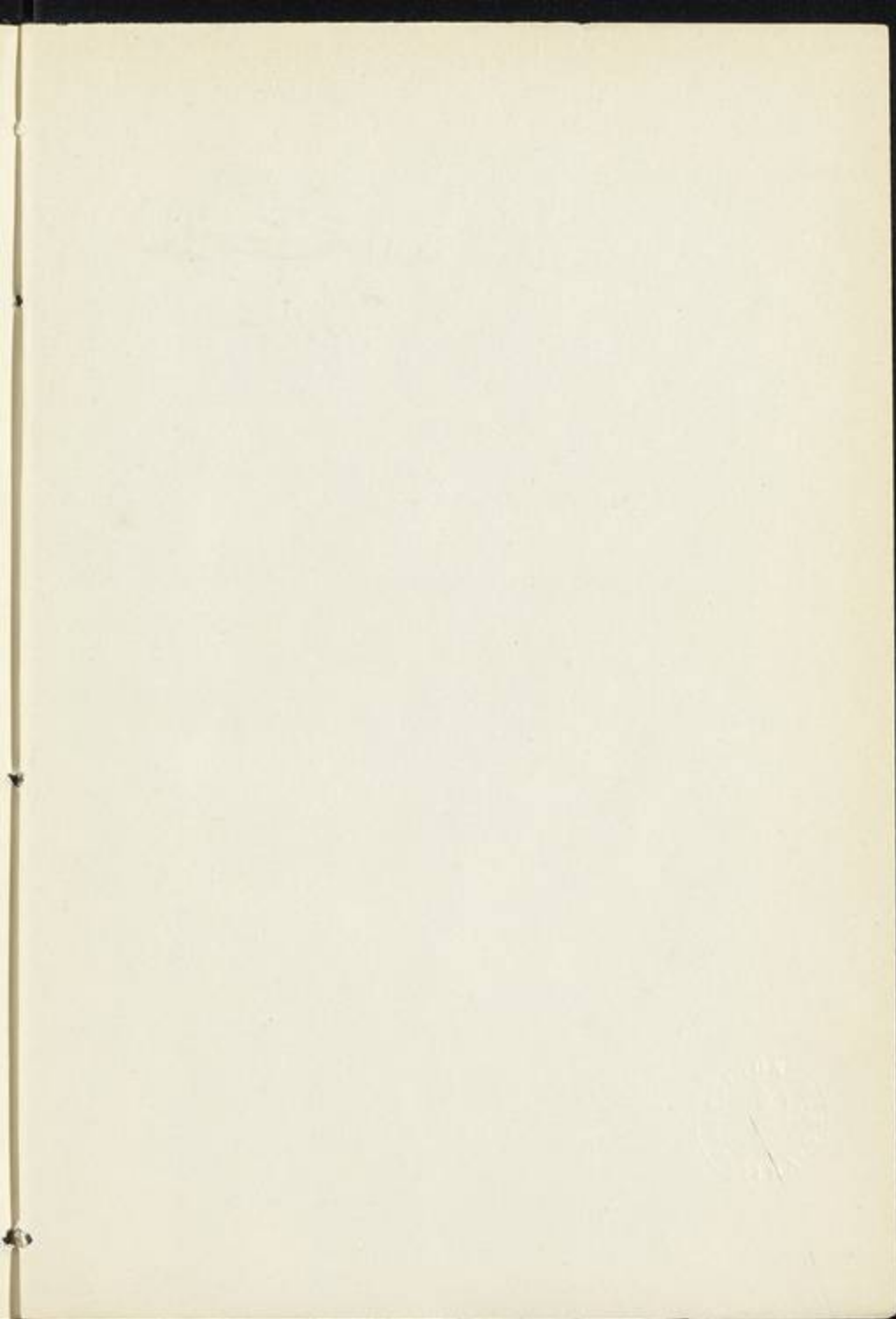
وقصص أخرى

هادية مني

Djâdi biya Sidqi :

"Mamlakat - Allahi" u.
a. Erzählungen

Paris 1954



فهرس

ص	
١	١ - مملكة الله
٨٩	٢ - وخيم الظلام
١٠٩	٣ - ريمان أفا
١٣٩	٤ - رنين الكأس
١٥١	٥ - العقو الكبير
١٦٩	٦ - صلاة الزين
١٩١	٧ - رمال
٢٠٧	٨ - جن مصور
٢٢٢	٩ - المجلس الضعيف

مؤلفات جاذبية صدق

المطبوع :

- مملكة الله : مجموعة قصصية
رييب الطيور : قصة مطولة للأطفال
حكايات عم سند البواب : قصص للأطفال

تحت الطبع :

- سكان العماره : مسرحية كوميدية اجتماعية
جميلة : قصة اجتماعية من الريف
أليس الصبح بقريب ؟ : مجموعة قصص قصيرة
الأصل الطيب : مجموعة قصص قصيرة

Sidqī, Jādhibīyah

جاذبية صدق

Mamlakat Allāh

مَمْلَكَةُ اللَّهِ

وقصص اخرى

مطبعة الاستقامة بالفاهرة

شماره نويسان شماره ۱۲

2274
·8874
·361

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

[الطبعة الأولى]

١٩٥٤

الإهداء

إليه

خير رفيق .

وأوفى صديق :

إلى يوسف زوجي ؟

جانينہ صدفی

1-17-68

1985

الصور بريشة الفنان : الأستاذ محمود كشك

ملكة الله

كانت «القاهرة» عصر ذلك اليوم تصطبى مستمتعة في بجوحة تحت أشعة الشمس الذهبية الدافقة ، وتتأهب محاولة جهدها صد الكرى عن عيونها ؛ فقد كان يوما من أيام شهر «فبراير» يمتاز بصفائه ، يشع دفئا لطيفا يسرى في الأوصال فتسترخي ويهددها حتى يسلمها إلى حالة تشبه الخدر الذى يسبق تلصص النعاس إلى الجفون ؛ فسارت العربات والمركبات فى الشوارع ببطء وكسل ، ونادى الباعة الجائلون ببضاعتهم مرة أو مرتين ثم أنزلوا أقفاصهم عن رؤوسهم وأكتافهم ووضعوها على جوانب الطريق ، وألقوا بأجسامهم الفارهة الضامرة إلى جانبها وهم يتسمون لأنفسهم فى رضا ، ويتمطون وأشداهم تكاد تتمزق من شدة الثأوب وتتابعه ، ثم يستسلمون لنومة هائلة تقصر أو تطول . فعلى الرغم من برودة الجو كانت الريح ساكنة ، والشمس تسطع بقوة وأطراد فى الزرقة غير المتناهية المبسوطة فوق الرؤوس .

جلست «ديانا» وقتئذ غضبي في ركن من أركان شرفة فندق «شبرد» المزدحمة تلاحظ الغادين والرائحين، وقد غاصت في مقعد من الخيزران أتكات بمرفقها على ذراعيه، على حين اشتبكت يداها تحت ذقها، وراحت أصابعها تنقبض وتبسط في ضيق وعصبية ضاغطة عليها، فتدفع شفها السفلى خارجا، وتضفي على وجهها سيماء التقبض. وكانت إحدى ساقيها فوق الأخرى تترجح في ملل وبلا غاية، حتى إذا اقتحمت عزلتها نكتة خشنة أو ضحكة عالية أطلقها أحد أصدقائها المحيطين بها هوت «ديانا» بقدمها على الأرض متبرمة في احتجاج صامت، ويمر على وجهها اكفهرار خاطف مرَّ سحابة شفاقة على وجه القمر. وأخيرا ضمت ركبتيها إحداها إلى الأخرى ودفعت بهما نفسها بمقعدتها بعيدا عن المنضدة التي اجتمع حولها جميع أعضاء الفرقة الغنائية التي تنتمي إليها.

لقد ضاقت الليلة بهم ذرعا على قدر حبها لهم. فلم يكن مزاجها معتدلا لاحتمال هرجهم وهذرهم. كانت تشعر بملل وتعب. وكل يعرف معنى شعور «ديانا» بالملل والتعب. اختلسوا نظرات حذرة إليها يقيسون مدى مللها ويستشفون نوعه. فلما أعيتهم الحيل في كشف كنه حالتها، اتفقوا على أسلم الطرق، وتركوها

على هواها وحدها ، إذ قدروا أنها على وشك الإصابة بنوبة
من الصداع القاسى الذى يرهقها بين الفينة والفينة ويثقل عليها
ولا يتركها إلا وهى نصف عمياء من الألم تلهث وتتصبب عرقا .
وفى عدا تلك الأزمات كانت «ديانا» دائما هى «ديانا» المرححة
الضاحكة الطروب التى لا تحمل هما أو بالحرى لا تتحمله . تنحنى
إذا ما استد القدر لها ضربة فتخف حدتها أو تمر من فوق رأسها
بسلام . فتلقى «ديانا» بنفسها لهقى' فى أحضان الدنيا فرحة
متشوقة ، وتواصل حياتها ثانية بحوية وإقبال عظيمين يلهمان
من حولها مثلهما . حتى فى ساعات حرجها عندما تفتح كيس
نقودها لتدفع ثمن سلعة اشترتها ، أو لتؤدى دينا فوات ميعاد أدائه
وتتقدم عليه العهد ، فتجده خاويا لا يحوى مليا ، لم تكن لتفارقها
ابتسامتها الجذلة ولا روح الدعابة الماثورة عنها . فتتخاص بظرف
وكياسة وتترلق من بين فككى الموقف انزلاق السمكة من يدي
صائدها . كان إفلاسها الدائم موضع مرحها ومحور سخريتها .
لم تكن المسائل المادية لتشغل بالها ، ولم يكن اهتمامها بالمال
إلا بقدر حاجتها إليه لساعتها . كانت بوهيمية النزعة قلبا وقالبا :
بشعرها الغزير المتهدل فى حلكنه ، ووجهها ذى القسما الشرقية ،
وبشرتها التى تنافس قلب زهرة متفجرة ندية ، وعينها التى جمعت

بين ضدين : جنة بخضرتها الماوحة بالنعيم ، تضطرم في أعماقها نار تلسع القلوب وتلظى الأرواح .

كانت عيوبها المتعددة محتملة هيئة : طيش وإسراف وسرعة غضب . ولكن أكبرها الذي شهَّر بها وكان نقطة الضعف فيها والثغرة التي تمسك حسَّادها من تسديد سهامهم خلالها ، هو الاندفاع وراء نزواتها كمرافقة لا تفقه من شؤون الدنيا شيئاً . فعلى الرغم من سنيها الثلاثين كانت لا تقوى على الحد من رغائبها ولا كبح جماح غرائزها ، ولو خرجت بها من العرف وأبسط أصول الأدب واللباقة . فطار صيت استهتارها ، وتنوعت مغامراتها ، وتعددت صبواتها التي كثيراً ما انتهت بفضيحة أو ضجة في أكثر من بلد من البلدان التي حطَّت فرقتها بها الرحال في أسفارها الكثيرة .

ومع كل ذلك كان لها قلب خير ينبض بالمشاعر الحية ، ويفيض بالعطف على زملائها ، وعلى كل من يتحایل على العيش بشق النفس . فتهب ما لديها لأى منهم في أى وقت . وكثيراً ما توقفت في عرض الطريق ، وقد عاق بصرها بفتاة نحيلة شاحبة الوجه تبيع وردا ، أو تعرض أوراق النصب ، وتجاهد في جذب المشتريين بابتسامة آملة مطبوعة على فمها قد ترهتها وتضئها أكثر

من تجوالها بالورق ومن المما كسة في البيع ، فتعطل «ديانا» من معها حتى تشتري كل ما تعرضه الفتاة دون استثناء ، وتسخر في العطاء ، ثم توزع ما اشترت عليهم . كانت العجوز المجتدة أو الرجل العامل أو فتاة كذلك تخطف لقمتها قسرا يوما بعد يوم من بين مخايب الزمن الضنين بها ، تلس الوتر المرهف في قلب «ديانا» ، فيهتز ، وتجاوب أصداؤه بين جوانحها ، فتفيض من ذوب روحها قبل كسبها الشيء الكثير .

ولسكنها كانت من جانب آخر دلولة متقابلة ، تتبرم إذا مرَّ يوم كسابقه ، تحب التغيير وتعشق التنقل وتهوى المفاجآت ، كالفراشة ما تهبط على زهرة - وإن كانت أنضر ما في خميعة - حتى تهيم باحثه عن غيرها ولو بين الحشائش . لا تنفك تبحث منقبة عن جديد يرضى عطش نفسها أو يملأ فراغ قلبها أو يشبع جوع روحها ، سواء تَمَخَّض ذلك الجديد عن رحلة أو ثوب أو لون طعام لم تذوقه أو رجل ... تفتح آذانها ووعيا جيدا عن اليقين وعن الشمال لا لتقاط أي وصف لمكان لم تزره أو قصة لم تقرأها أو شعور لم تجربته . إذا أعوزتها النصيحة تفتق ذهنها هي عن كل غريب شاذ وإن اشتط في شدوده . وكان يعترها ضيق بسبب وبدونه أحيانا جمة ، قد يستمر أياما أو يعمر ساعة كسجاجة صيف رقيقة

تطوح بها نسمة ناشطة وتبخّر إذ يتخللها شعاع النور .

كانت «ديانا» في إحدى حالاتها تلك الغامضة المستعصية حتى على فهمها ، عمر ذلك اليوم من أيام «فبراير» الدافئة النادرة . وكانت شرفة الفندق الشهير تموج بوفود السياح والتراجمه وتغص بالباشوات والشبان الوارثين عن جدّة ، محبّي الجمال الأجنبي . يفتل البعض الشوارب المصبوغة المقصّصة ، ويمسح البعض الآخر على الشعور الناعمة المنمقة ، والجميع يتبخرون جيئة وذهابا ، ورءوسهم لا تستقرّ مكانها كأنما ركبت على لولب من كثرة الالتفات يمنة ويسرة ، علّ العين تقع على واردة جديدة أو شاردة فاتنة .

وكان زملاء «ديانا» كثيرى الصخب والجلبة يثرثرون بلغتهم الفرنسية في وقت واحد وصوت عال . يتهقه أحدهم حتى يكاد يستلق على قفاه وهو يضرب أخاه على ذراعه معبرا عن إعجابهِ بالملحة التي ألقاها . على حين يتعثر آخر في إنجائزيتته الركيكة وقد مال بمقعده إلى الوراء يناقش من فوق كتفه جارا لهم على المائدة المجاورة . على حين يفخر ثالث بلفظ عربي التقطه من بائع جائل أو ماسح أحذية ، ويظل يكرّره بمناسبة ودون مناسبة حتى يضح رفقائه منه ويمجوا سماعه ، فيسكثروا عليه

يملئون فاه بفضلات الخبز المتناثر على منضدتهم ويسدُّونه ، فتعلو
صرخاته المكبوتة الضاحكة وهو يستنجد ويركل بقدميه الهواء
ويشير بعينه وذراعيه أنه لن يعود إليه البتة . فلا يلينون
ولا يهنون ويخزون في جنبه زيادة في التنكيل . فيخرج منديله
الأبيض ينشره أمامه ملوحاً به معلناً استسلامه . ثم يتماوت
ويفرغ بحلقه محملاً بحزلاً بصره ؛ ولسانه متدلّ ، فينفضون
من حوله ضاحكين في صخب ويلتفتون لسواه .

وقال رجل منهم قصير القامة ممتلئاً يضيق المرح عينيه ويشقّ
فمه عن ضحكة جذلانة وهو يوجه حديثه إلى «ديانا» :
«أى ديانا ! ما هذا السكوت يا صغيرتي ؟ ما الخبر يا أجهل
وردة ؟ أراك اليوم ذابلة . ترى ، أيرهتك حرّ الشرق ؟ » .
وأدار عينيه النفاذتين مشيراً إلى الدنيا حوله .

فصاح به آخر طويل نحيف يدعونه «جاك» وهو يتقفز واقفاً :
«أف لك ! حرّ الشرق ! أتسمى هذا حرّاً ؟ » ورمق
«موريس» السمين بنظرة ساخرة : «هذا دفء يا غبي ! دفء
يشير دماء الشباب ويجعلهم قلقين هكذا ، ولكنه في نظرك أيها
الخنزير المغلوف حرّ مرهق لا يطاق يذيب الدهن عرقاً يتصبب به
لحمك ! آه يا إلهي ! » .

وضرب جبهته بكفه في حركة تمثيلية دراماتيكية ، وألقى بنفسه على مقعده ثانية . نصفق «موريس» السمين بشدة وقال :

«مرحى ! مرحى ! حديث لبق والله أيها الجميل ! خطبة أخرى كهذه قد تلفت إليك نظر «ديانا» ! إنك تحاول جاهداً منذ زمن بعيد يا صغيرى المسكين دون جدوى ! » وتهد بحرقة : « أنت تستأهل بسمة على الأقل من الشفتين النارييتين إن لم تكن قبلة . أليس كذلك أيها العاشق الخائب ؟ » .

ومال على المنضدة يبطنه المكور يخرج لسانه القصير السمين في وجه «جاك» الغاضب .

فضج الآخرون بضحك أهوج حاد . فقد كان «موريس» ينجح دائماً في هز مشاعر الجمع وتسايتهم كلما أشار إلى حادثة القبلة المسرحية التي تبادلها «جاك» و«ديانا» ذات مرة ووضع فيها «جاك» من الشعور والحرارة أكثر مما تتطلبه المسرحية ، فأثار أعصاب «ديانا» حتى نسيت نفسها وصفعته وهما فوق المسرح صفة كانت موضع تندر أفراد الفرقة زمناً . وكان «موريس» يقوم بحركات تمثيلية معبرة وهو يلقى روايته للذرة الألف :

« وبيننا المسرحية في أوجها وأنا واقف وراء «الكواليس» أمسك بجبال الستار ، سمعت فجأة فرقة كسعة سوط . نظرت فإذا

« جاك » الجميل خارج يجر رجليه وخته الأيمن الذي أعرفه أصفر
مورد وموسوم بخطوط عرضية شديدة الشبه بأصابع اليد !
ثم تنحج بمغزى واستطرد : « والحق يقال يا إخواني لقد أضفى
هذا اللون الوردى الجديد على وجهه بهاء ، حتى تمنيت لو استطاع
جلب مثله لخته الآخر ! » .

فثارت عاصفة هوجاء من الضحك المجنون ثانية يقودها
« موريس » نفسه ، وهو يضرب نخذه بذراعيه ، ويقفز طربا ،
ويهز رأسه يمينا وشمالا .

ثم باح أحدهم الساقى الزنجى مازا ، وعلى كفه صينية تكنتت
عليها معدت الشاي وأطباق الحلوى والفطائر ، فصاح :
« وَوَيْكَ يا ساقى ! » .

فلما لم يسمعه تتمم : « وَوَيْح لهذا الزنجى ! » .
فلما تنبه الساقى له واستدار نحوه يتسم مستفهما ، وأسانه
الناصعة البياض تبرق وسط السواد المحيط كسنا الأمل في حلقة
الأس ، قال له : « أسعفنا بمزيد من البيرة وربك ! » .
فالتفتت « ديانا » إليهم يجذبها مرحهم ، ولكنها لم تشارك فيه .
فإنها ذلك اليوم لم تشاركهم شيئا : لا الشراب ولا القتال على
ما يصاحبه من عصي البطاطس الرفيعة المحمرة وجبات الفول

السوداني المملحة وشرايح الخيار الغارقة في الزيت والليمون . لقد كانت «ديانا» تحب هذا الخيار جبا جما ، حتى كانت تسابق الجميع وتقابل الساقى وسط القاعة قبل أن يصل إلى منضدتهم ، وتخطف الصحن منه دون أن يستطيع أحد إنقاذ شريحة لنفسه . ثم تلتق برأسها إلى الخلف وتقذف بالشرايح اللينة اللذيذة إلى فيها قطعة تلو الأخرى ، وهي تعوى بنشوة لتضحكهم مقلدة كلب البحر في وليمة سمك . لم تفعل شيئاً من ذلك ، ولم تجلس كعادتها على حافة المائدة بعد الغداء وتنفس شعرها وتكشف ثوبها عن ساقها واضعة يداً على خصرها وتغنى أغنية بوهيمية من أغاني «أوباش» «باريس» أو أخرى فاضحة من نغم كإباريهات «نيويورك» يصاحبها «جاك» على «هارمونيكا» التي لم يكن يتخلى عنها أبداً ، بل يحملها دائماً أينما ذهب في جيب سترته ، ويخرجها حينما استقر به وبرفقائه المقام ، ويظل يعزف عليها لنفسه نغمات رقاقا لا تكاد تسمع ، وعيناه من فوق يديه المضمومتين إلى فمه تلاحظ كل ما يجري حوله ، حتى إذا أومأت إليه «ديانا» اعتدل في جلسته وانخرط في العزف يتابعها فيما تغنيه .

كانا زميلين منسجمين - هو و«ديانا» - في العمل . فكأنما شحنت موسيقاه الهيمنة بسنان دقيقة تحز شياطين كيائها .



فكأنما شحنت موسيقاه الهيامة بستان دقيقة تحز شياطين كيانها

فكانت إذا ما سمعتها ارتعش بدنها وتقلصت يداها في حجرها، ثم انطلقت تشدو وتبدع حتى تنفر عروق رقبتها المرمرية وتقدح عينها ذواتا البريق الفيروزي الخاطف لهُبًا يتحدى سامعها ألا يخزوا صرعى جمالها المثير، وألا ينتشوا بروعة صوتها الذهبي ذى البحة التى تشوبه أحيانًا متسللة تلونه كحمره الحياء فى خد عذراء .

فكان الرجال من النزلاء فى مرورهم داخلين أو خارجين من الفندق يقفون بغتة أمامها يحملقون فى وجهها، مصوبين إليها نظرات وُلهى، وينتظرون ساعات يحدوهم أمل ويدفعهم شوق . على حين يطاق الشبان منهم صغيرًا طويلًا إعجابًا وتحية .

أما النساء - العجائز منهن بخاصة - فكنن يشحن بوجوههن جانبًا فى امتعاض ويرمقنها استنكارًا متأففات؛ حتى إذا مررن أمامها تحسرن بصوت عال على الأخلاق - أخلاق المغنيات الفاتنات - التى أفسدتها الحروب وانزلت بصاحباتها إلى الحضيض . وردًا عليهن كانت «ديانا» تنفجر ضاحكة فى وجوههن .
الذاهلة .
فيهرولن بعيدًا وهن يشمخن بأنوفهن ترفعا؛ فتشيعهن «ديانا» بأغنية بذية من أوقع ما كتب عن الحب المكشوف الفاضح تحمّر لها أفتيتهن العجفاء تحت الشعور الرمادية المعقوفة إلى أعلى .

فعلت «ديانا» ذلك - وأكثر . كانت روح الفندق وقلبه
الناض . حيويتها دافقة تترع فتعندق بالفائض حولها يمينًا وشمالًا .
ولكنها يومنا ذاك كانت غيرها بالأمس ، طال انطواؤها على
نفسها ، وازداد عبوسها بتقدم الوقت ، وندر كلامها . صدت
كل من حاول التقرب إليها من زملائها ليسرّي عنها بنظرة
الزئيمه مكانه .

فلما جاء الحاج «سليمان أبو شعبة» - الترجمان الذي اختارته
الفرقة رفيقًا ودليلاً - بعد أن أدى صلاة المغرب ، رفعت «ديانا»
بصرها إليه وابتسامة تتلاعب على شفقتها لأول مرة ذلك اليوم .
كان الحاج «سليمان» شيخًا خفيف الظل شديد الذكاء يزيل
بجلسه الهموم عن القلب . يعرف متى يعي ما يقال ومتى يتدعى
الصمم ومتى يتكلم ومتى يحمل به الصمت وماذا بالضبط يقول
حين يجب القول . أحبه كلُّ منهم حبا صادقًا ؛ فما كادوا يرونه حتى
قفزوا إليه يعانقونه ويخطفون عمامته ليميلوها على رؤسهم الشقر
ويقلدوه في مشيته .

ألقى الحاج «سليمان» نظرة خاطفة شملت الجمع أنباته بالجؤ
السائد . فسحب مقعدًا في سكون قربه من «ديانا» وجلس وهو
يتسم محيا ويقول في فرنسية طليقة صحيحة :

« مساء الخير يا بنت الشمس ! كيف حال أبيك القمر اليوم ؟ » .
فابتسمت لدعابته ، وتجاهل هو انقباضها وشحوب وجهها
الظاهر ، واستطرد :

« جئت أدعوكم الليلة إلى حفلة لم تروا مثلها بعد ! » .
فعلت همهمة التأسف والاعتذار ، وتباكي « موريس »
السمين صائحا :

« أواه يا حاج « سليمان » ! أواه ! مساكين نحن والله ! نأتي
معك ؟ وماذا نفعل بالجنود المنتظرين ؟ لا بد من الترفيه عنهم
كل ليلة كما تعلم ، نحن والله أشد ما نكون حاجة إلى ترفيه أنفسنا ؛
ولكن ماذا يستطيع المرء منا أن يفعل وهذا مطلب عيشه ؟ » .
أما « ديانا » فاستدارت إلى الحاج « سليمان » وقد برقت عيناها
ووضعت يدها على ذراعه :

« سأتي أنا معك يا حاج : لا أذهب إلى العمل الليلة ! » .

فبهت زملاؤها وهتفوا معا :

« ماذا ؟ لا تذهبين إلى العمل الليلة ! كيف ؟ » .

فأجابت بهدوء : « كذا » .

— « ولكن هذا محال ! » .

— « لا محال عندي ؛ قلت لا أذهب ولن أذهب ! » .

ونظرت إلى الحاج «سليمان» ووجنتها متورّدتان ، وقد
تبدّل حالها وذهب عنها الملل :

«خبرني يا حاج : أيّ حفلة ستكون ؟ أزواج أم ختان ؟
لقد حضرناهما ذات مرة !» .

فأجاب الحاج وهو يعدّ حبات سبخته الكهرمانية :
«كلا يا بنتي : لا هذه ولا تلك ، بل هي حفلة ذِكر نذرت
وفاءها إذا ما نال ابني «عبد الله» شهادته الأزهرية» .
فاتسعت حدقتها دهشة :

«ألك ابن ؟ لم تذكر حرفا عن ذلك خلال الثلاثة الأشهر
التي عرفناك فيها !» .

فهر الحاج «سليمان» رأسه بتؤدة :
«لم أجد مناسبة ولا ضرورة للتحدّث عن نفسي وأهلي
ولم تسألوني أتم فسكت» .

فسألته «ديانا» مجاملة :
«وكم يبلغ من العمر ؟» .

وتطرق بهما الحديث وتشعّب ، ونسيانَ حولهما .
فتملبل «جاءك» وقد ضايقه عزم «ديانا» على التخلف فقال :
«ديانا يا عزيزتي ... أمّا تخلفك فمستحيل ، لا بدّ من ذهابك !» .

فرمقته بنظرة ساخرة، وقد ارتفع حاجبها في اهتمام
مصطنع وتهكم :

« لا بد من ذهابي ؟ بربك أخبرني ، من يُسكِرهنى على ذلك ؟ » .
واكفهرت وجهها فجأة واربتد ، وصرخت تنفك فيه سموم
ضجرها المكبوت طوال اليوم :

« لا تنفك أيها الرجل تخزني بأوامرك وتثير أعصابي
بمستحيلاتك كأنك أخى أولك بي شأن . ألا تستطيع منع لسانك
عنى - أم هذا مستحيل هو الآخر ؟ » .

فنداعى « جاك » وشحب وجهه ، ولكنه تتم ليسترخجه :

« كل ما أود معرفته بماذا نعتذر عنك ؟ ماذا نقول لهم ؟ » .
فأخرجت « ديانا » بكل برود مرآة صغيرة من حقيبة يدها ،
وراحت تصلح من شأنها لحظة ، ثم نهضت ويمت شطر السلم
تهبطه إلى الشارع وهي تجر الحاج « سليمان » وراءها من كم قفطانها .
وعلى آخر الدرج التفتت وصاحت من فوق كنفها :

« قل لهم إنى مت أو انتحرت من ثقل دمك ! » .

وفى الطريق لوّح الحاج « سليمان » لسيارة أجرة تقلاهما
إلى وجهتهما ، ولكن « ديانا » أسرعت تنزل يده المرفوعة قائلة :
« لا لا يا حاج « سليمان » - أرجوك ! لناخذ الترام إلى غايتنا .

أريد أن أحيا الليلةَ في جوِّ وطني - جوِّ يختلف تمام الاختلاف
عمّا ألفت ، علَّ روعي القلقة المتمرّدة تهدأ وتسكن ؛ تخيّل أني
امرأة شرقية من قريباتك وعاملني بالمثل .

فوافقها الحاج « سليمان » باسمها ، وهو يهز رأسه في فهم وتقدير :
« لك ما تسألين يا بنتي ؛ أول ما أمرك به إذن هو أن تستري
وجهك بأى قناع » .

فصاحت : « هو ذاك ! » .

وألقت بوشاحها الحريري الشفاف على رأسها ، فانسدل
يخفيه كالنقاب .

فسار أمامها وتبعته مهرولة عن كعب .

وفي حيّ « الحسين » حثّا الخطي' محترقين الحارات الضيقة
والأزقة المتشعبة . وطرقت سمعهم همهمة ولغظ ازداد علوا
ووضوحا كلما توغلت « ديانا » ورفيقها في صميم الحيّ . لم يقابلا
في بداية طريقهما إلا أفرادًا قلائل متعثرين ، بين امرأة عجوز
تعرج جنب حائط ، وطفل يلهو وحيداً على عتبة دار ، ومجدة
ما زال قائماً يطوى بضاعته ويحشرها حشرا في دكانه الضيق الذي
قد تخطّه العين في عتمة المغارب وتظنه شقا . وكانا كلما تقدّما
في سيرهما ثقلت خطواتهما لتكتئلا جموع الناس تواليًا ، حتى إذا

بلغا بشق النفس ساحة المقام « الحسيني » المضاء بمصابيح تترجح
على أعمدة خشبية لم يجدا موضعاً لقدم . فقد احتشد كل أهل الحى
والجيرة بين متفرج ومشترك فى التكبير والتهليل .

وأطلت النساء ساكنات البيوت المحيطة من النوافذ ، على
حين احتلت أخريات ظهور عربات خشبية مستطيلة تجرها حمير
أو بغال وقفت بهن فى قافلة ترتكن إلى حوائط الساحة فى نصف
دائرة كبيرة ؛ تربعن يثرن وسط بنات يافعات ، وأطفال
نيام ، ورضع صارخين : تخرج أم أحدهم ثديها له فيلقمه لحظة ،
وما تكاد تطمئن إلى هدوئه ورضاه ويراها هو تلهو عنه بالتفرج
أو الحديث مع جارة حتى ينفجر باكيا يضرب صدرها بقبضته
الصغيرة لتنظر إليه ثانية ؛ فتلثفت نحوه لاعتة مبرمة ترمى نفسها
بالعته إذ أنجبته ، ثم ترفعه من ذراعه وتهوى به على شقه الآخر ؛
فلا يهن ولا يلين ، فتضيق به أيما ضيق ، وربما ضربته على فخذه
ليسكت فتشتد حدة بكاء الجنى الصغير ، ويعنف عويله ، فتعود
المسكينة تهدده وتقبله طالبة منه الصفح دون جدوى ، فنلطم
خديها وتكشف ملامتها عن رأسها وترفع بصرها إلى السماء
داعية بالموت على نفسها مرة وعليه مرة أخرى ، حتى ينقذها
من هذا الكرب بائع يحمل أصابع وحلقات من الحلوى الحمراء

والصفراء والخضراء مخططة وغير مخططة على لوح من الخشب
ينحشر به بين العربات ؛ يغازل بنتا نافرة ، ويسمل ويصلى
على النبي باسمه وهو يجيب نداء أمها السمينة البيضاء ، ويدع أباها
الطفل إصبعا أو إصبعين ، فينحيه عن طريقه آخر يدفع بثوذة عربية
عليها إناء نحاسي هائل الحجم أهيل فوقه تل من الأرز والعدس
المطهون معا ، وترتفع بعنقها إلى جانبيها زجاجة الخل والتوابل التي
يرش منها البائع على وجه الخليط في صفحة الآكل قبل أن يأكل .
ويفرق بائع العرقسوس أو شراب الليمون بِصَنْجِيهِ
النحاسيين مناديا وهو يغمز بعينه :

« هنا الخبز الأصلي ! اِرو قلبك يا جميل من عندي ! أنا
بياع الشربات ! » .

فتجلجل ضحكات النساء من كلامه . فيشوق شهقة عالية ،
ويتمائل كأن ذلك عن سكر من حلاوة ضحكاتهن ، ويقول :
« وعدى ! يا شربات ! أنا خدام النبي ! » .

ويرفع حمار إحدى العربات رأسه عن محلاته فيدح أتاننا
رشيقة تقف عن كذب تمط رقبتها نحوه وهي تضرب الأرض
بأرجلها ضربا خفيفا ؛ فتهيج عواطفه وتثير كوامن نفسه ، فيعلو
نهيقه وشحجه بين الأصوات ، ويحاول الاقتراب منها وحك

رأسه برأسها، قهتز العربية بالنساء وتميل، فيصرخن مذعورات
ويمسكن برقاب بعضهن البعض مولولات مستغيثات بالسائق
الذى يكون مفترشا الأرض فى جانب مع رفقاءه يشدون أنفاسا
عميقة من قصبات «الجوزة»، ويحتسون أكواب الشاي
الأسود؛ فيقفز مسرعا ويعدو إلى حماره لاعنا يضربه ويخزه
وهو يحضه على التزام الحشمة كأنما هو من بنى البشر يفقه
توبيخه وقذفه بقله الحياء والأدب. ويسود السلام مرة ثانية،
ويعود السائق إلى زمرة شاربي الشاي، وتتهجد النساء بارتياح،
ويواصل كل متعته على طريقته.

وكان الوافدون على الساحة المفروشة بالحصر لا ينقطع
سيلهم، حتى اكتظ بهم المكان على سعته، منهم الشيخ والشاب
واليافع، المعمم والمطربش ولامع الشعر ومصففه تحت الطاقة
الشبكية المائلة؛ وإذا دقت النظر فى وجوههم تبينت اختلاف
جنسياتهم من سماتهم؛ فقد دعا الحاج «سليمان» بعض معارفه
الكثيرين من صينيين وهنود وتونسيين: تجار وطلاب علم
بالأزهر الشريف زاملوا ابنه سنين، وأصحاب مهن أخرى
استوطنوا مصر من زمن وتوطدت الصلات بينهم وبين الحاج
«سليمان». كان الرجل منهم يشق بكتفيه طريقا يحشر فيه نفسه

ويظل يجاهد حتى يصل إلى دائرة المحتفلين ، فيفسحواله مكانا
بينهم على قدر المستطاع ، وهم يردون تحيته بأحسن منها . فيخلع
نعليه ويصلي ركعتين لصاحب المقام الذي يجتمعون في ساحته ؛
ثم يضع إحدى نعليه فوق الأخرى ويجلس فوقهما ، وهو يلتفت
إلى من بجانبه قائلا :

« أهلا وسهلا ! كيف الصحة والبيت ؟ » .

فيربت الآخر صدره شاكرا دون أن ينبس ببنت شفة ،
إذ يكون منهمكا في التسبيح . فيقلده القادم الجديد ، ويكرر معه
أو وراه آيات الثناء على العليّ العظيم والتكبير لآسمه الجليل .

أوصل الحاج « سليمان » « ديانا » إلى منزله المطل على ساحة
المسجد « الحسيني » وسألها وهما على عتبة الدار :

« أتعبت يا بنتي ؟ إن الزحام شديد ! » .

وابتسم في ظلام الدهليز رضاً ونغرا . فصاحت بحماس :

« بتائنا لا ! » وجعلت تجيل بصرها حولها كي لا تغافلها فائتة
دون أن تملأ منها ناظرها ، وقد برقت عيناها بنار خضراء دكناء
أضفت من حرارتها على خديها تلهبهما بدم قان .

فانفرجت أسارير الشيخ وسار أمامها يقطع الطريق ميمما
شطر السلم الحجري العتيق المضاء بفانوس صغير يرتجف على

مسمار في ركن من أركانه ، ويرسل نوره بهمة لحظة ثم ترقص
ذبالته بجنون وتخفت ، حتى تكاد تنطفئ إذا ما داعبتها نسمة عابثة
مرقت من الباب أو تلصصت إليها من عل . فتعثر قدم «ديانا»
وكادت تسقط ؛ فتوقفت مكانها ويدها على الدرازين الخشبي
تنظر مترددة . فأخذ الحاج «سليمان» بمرقعها يسحبها برفق
ويحضها على الصعود ، قائلاً :

«استندى إلى ذراعى يابنتى . فهناك بضع درجات تأكلت
حافاتها أعرف كلا منها كما أعرف أولادى ؛ فأجنبك التعثر
وأوصلك بسلام وأعرفك بأهل بيتى ؛ وإن لم يكن لديك مانع
تركك بعد ذلك فى صحبتهم ونزلت أنا إلى ضيوفى .»

وقبل أن تفتح «ديانا» فمها أردف بسرعة :

«ولكنى أرجوك إذا ما احتجت شيئاً أن ترسلى «عمر»

الصغير لندائى فألجى طلبك فوراً !» .

فابتسمت «ديانا» وهى تضغط ذراعه شاكرة :

«أنت كريم القلب يا حاج . ولكنى لن أبعث فى طلبك حتى

تصعد أنت من نفسك بعد انقضاء الحفل ، إذ أنى على ثقة

من تمضية سهرة بهيجة مع أهلك !» :

كان منزل الحاج «سليمان» من منازل العهد الغابر بكل

خصائصها . بُني بكتل من الحجارة الثقيلة ، وتدلى وسط بابها الزان يد حديدية ممسكة بكرة علق فوقها تمساح منخط لجلب الرزق . وما يلج الزائر داخلا حتى تقابله رائحة بخور خفيفة لا يستطيع تحديد مكانها بالضبط تنبعث محوِّمة مرَّجة . ويظلم المدخل حتى يضطر المرء إلى التريث لحظة ولو كان في وضح النهار ، حتى إذا تعودت عيناه العتمة تبين زيراََ يمكن جاَئما إلى اليسار فوق مقعد خشبي له ثعرة مستديرة .

ويتكوّن المنزل من طبقتين أُجر الحاج « سليمان » الأولى منهما غرfa مستقلة لعائلات فقيرة لا تدفع له الإيجار في ميعاده أبداً حتى تجمعت عليها مبالغ كبيرة . ولم يكن الحاج يطالبها قط بل يترك لأربابها دفع ما يتحصلون على جمعه بين الفينة والفينة وقتما يتيسر لهم ذلك . فحفظ النساء له جميله وفضله ، وجعلن من أنفسهن خادمات بالتوالى لعائلته ؛ يشترين ما يلزم من الخارج ويقمن بما يلزم من الأعمال في الداخل من مسح سلّم وغسل ملابس إلى طهو الطعام وتنظيف الصّحاف .

صعد الحاج « سليمان » برفقة « ديانا » إلى الطبقة العليا إذن . فقابلتهما شابة سمراء حلوة القسمات أبرز ما فيها حاجبان رفيعان في استقامة ، وعينان كحيلتان شديدتا الجاذبية تتكاثف أهدابهما

الطويلة عند الحافتين حتى يخيل للرائى أنهما مغلقتان . فانحنت
وقبلت يد الحاج الذى جذبها بسرعة وهو يستغفر الله من فتنة
الغرور . ثم تنحّت عن طريقهما وأشارت بذراعها تدعو «ديانا»
إلى الدخول .

« أهلا وسهلا ! زارنا النبي ! » .

فابتسمت «ديانا» تردّ التحية التى لم تفهم ألفاظها ، ولكنها
تبينتها بالبدية من إشراقة وجه الفتاة وحركاتها .

ثم جاء راكضا من الداخل صبىٌ جميل الصورة يبلغ من العمر
حوالى الخامسة طويل الشعر شيئا ناعمه ، مارأى الحاج حتى اندفع
نحوه يحتضن ساقيه بذراعيه السميتين ، وقد رفع وجهه إليه
فى حب وعبادة عميقين .

فربت الحاج الرأس المجعّد ، وقال محدثا «ديانا» :

« ذلك عمر الصغير - حفيدى ! »

وأخذه من يده يقربه منها وهو يهمس إليه :

« سلم على السيدة يا ولد ! هى ضيفتنا الليلة ! » .

فالتفت «ديانا» بسرعة إلى الشابة السمراء وقد استندت

صلة القرابة :

« هى أمه إذن ؟ زوجة ابنك ، أليس كذلك ؟ » .

فأوماً الحاج إيجاباً واستطردت وهي تنفّس فيها وتأنمّلها
بعين الفنانة على ضوء المصباح الوحيد بالحجرة :

« تالله إنّ جمالها نادر يساير بعضه بعضاً يكمله ويظهر إبداع
صياغته ؛ وى كأنها قصيدة مدبّجة الأبيات أو قطعة موسيقية
منسجمة النغمات ؛ وجه كأنه محيا حورية أفلتت من الفردوس ،
ورشاقة أعضاء مياسة كأوتار كان تماوج من نشوة حسنها ؛ نموذج
فتى بديع صنيغ بدقه ! » .

وكان الحاج « سليمان » يتسم ويترجم للشابة ما تقوله « ديانا »
بين وقت وآخر . فيتضرج وجهها وتطرق خجلى ويزداد ارتباكها .
ثم سألت « ديانا » الحاج : « وما اسمها ؟ » .
فقال : « بدرية ! » .

فردت وراه : « بدرية ، بدرية ! اسم له رنين موسيقى ووقع
على الأذن ترتاح له ؛ ولكن قل لى ما معناه ؟ » .
فهز الحاج كتفيه فى حيرة وزم شفتيه مفكراً ، وأخيراً قال :
« إنه اسم مشتق من لفظ « بدر » ! » .

فوضعت « ديانا » يدها على قلبها وأدارت حدقتها حولها ، ثم
ألقت بنفسها على مقعد قريب فى حركة دراماتيكية ، وتصنعت
الإغماء من قوة الافتتان ، وصاحت :

« صدق والله من سماها ! » .

فضحكوا جميعا ، وزال تهيب « بدرية » وضمت ابنها في

أحضانها ، ووقفت ترمق « ديانا » في سرور .

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

جلجل صوت المؤذن عاليا يدعو إلى صلاة العشاء ؛ فهرول

الحاج « سليمان » خارجا ، وتمت « بدرية » يمتزج صوتها بلثغة

عمر الصغير :

« سبحان الله ؛ الدوام والعزة للعلی العظيم ! » .

ثم قاما وصليا ، هي أمامه على سجادة صغيرة من الخوص

الأصفر والأخضر ، وهو وراءها وقد بسط منديلا محلاويا

وراح يقلد حركاتها بجد واهتمام .

وجلست « ديانا » تلاحظهما باسمه لما في منظرهما من طرافة

جديدة عليها .

وضمّت « بدرية » كفيها - وقد فرغت من صلاتها - تستغفر الله

وتسأله الرضا ودوام النعمة . وفعل مثلها « عمر » . ولما انتهيا

قالت لها « ديانا » :

« كآني بمنظركما أتأمل صورة للعدراء « مريم » وابنها دبت

فيهما الحياة ! » .

فلم تفهم « بدرية » مما قالته إلا الآسم ، فصاحت :

« سيدتنا « مريم » ؟ عليها السلام ! » .

وأخذت بيد « ديانا » تحثها نحو الشرفة الفسيحة ذات المشربية
المفروشة بالأرائك والوسائد الوثيرة . ودفعت إلى الخارج
« شيش » إحدى النوافذ الصغيرة الكثيرة العدد ، وأشارت إلى
« ديانا » أن تقترب وتطل على القوم .

كانت الساحة تموج بالمدعوين وقد هبوا كرجل واحد يجيبون
دعوة الداعى إلى أداء فريضة الخشوع للهلك الحق . فساروا
جماعات ووحداً نحو المسجد والبيوت المجاورة ليتوضأ منهم من
أراد ويعود فيأخذ مكانه وراء الإمام . ثم خفت المهمة
وخرس كل صوت ، وساد سكون مطبق كأنه صدر عن إشارة
ساحر ، وبدأت الصلاة . انحنت الرؤوس وغطت الوجوه وخشعت
الآبصار ورجفت القلوب فى الصدور وهفت النفوس بين
يدى الله طامعة فى العفو والرضا ، وقد وقف المصلون صفوفاً
طويلة منتظمة وتساوت مراتبهم وأعمارهم ، يقومون معاً
ويخزون بُجداً معاً كالبحر المتلاطم فى تماوجه ، مدقياً صوتهم
الجهورىّ بترديد :

« الله أكبر ! الله أكبر ! » .

ثم ركعوا جماعة باسطين الألف رافعين الوجوه نحو السماء ، يدعون تضربا وخشية ، مبتهلين في توسل ، يسبحون الله ويثنون عليه ، مرددين أسماءه الحسنى وراء إمامهم ؛ فنطاق الكلمات من حناجرهم قوية إلى العلاء ، وما تزال ترق وتهن متضائلة كلما ارتقت تسمو مصعدة نحو العلى العزيز كأنما تشفق من رهبة القرب ، حتى تصل همسا ضارعا إلى السميع المجيب تتلوى منسكة الرأس في تذلل متقرّبة في زلفة إليه .

فشعرت «ديانا» وهي تستمع إليهم وترقبهم باهتمام متزايد ، تحصى حركاتهم ولا تفوتها سكنة ولا لفتة - شعرت بالدم يندفع إلى رأسها يلهبه ويثقل الجفون وينفر العروق نابضة ثم يغيب ثانية . . . فسرت قشعريرة من أسفل شعرها إلى عمودها الفقري ، وارتدت عائدة تبعث بإشعاعات إلى كتفيها كالتقوجات الكهربية . فأخرجت «ديانا» رأسها متحمسة من النافذة على شينا يجذ ، ومالت على حاقها حتى وسطها وقد دعمت ذقنها بكفيها في الهواء تتابع القوم بنظراتها ، نخشيت «بدرية» عليها السقوط ، وربت ذراعها تنبها بلطف . فاستدارت «ديانا» نحوها دهشة كأنما نسيت وجودها بجانبها ، ثم ابتسمت وهي تسمع على جبهتها بظهور يدها كأنما تستيقظ فورا من نومها وقالت :

« لا تؤاخذيني يا « بدرية » . فلقد اندمجتُ اندماجا كلياً فيما
أمامي من مشاهد ؛ فأنا فنانة تستجيب بروحي بالفطرة لكل جديد
ملهم صادق في حرارته وتعبيراته ؛ ولقد بهرني ما رأيت ؛ إذ أتى
على كثرة أسفاري أذرع بقاع العالم طولا وعرضا لم أر في حياتي
شعائر دينية معبرة كصلاتكم توحى بالرهبة من عظمة المعبود
وجلاله ، وتبعث الطمأنينة في الوقت عينه سارية إلى النفوس
لرحمته الواسعة بعبئده ومعرفته بضعفهم البشري ؛ فالركوع
والسجود وضم الألف ورفعهما تمثيل بليغ صامت يصور أماناً
المرء ومخاوفه وخضوعه أروع تصوير . قرأت ذلك وأكثر
على صفحات الوجوه . يا إلهي ! » .

وتهدت من أعماقها ثم أردفت وهي تضغط ذراع « بدرية »
وتدفعها لتنظر معها :

« انظري يا « بدرية » ! انظري إليهم يمسخون على وجوههم
بأكفهم بعد الفراغ من الصلاة ؛ لماذا يفعلون ذلك ؟ لقد نسيت
أنك لا تفقهين قولي . لاستنتج أنا وأحاول الفهم وحدي ؛
لا شك أن عملهم هذا للتبرك ، فظاهرة أيديهم الضارعة إلى الله
تستمد صفاءها من نفوسهم وهم متوجهون إليه . أليس كذلك ؟
على الأقل ؛ هذا تليل يرضيني ريثما أستفهم من الحاج عنه » .

وأراحت رأسها إلى « شيش » النافذة وسرحت بأفكارها بعيدا ، واستطردت تحدث نفسها :

« أى هدوء هذا وأى استقرار يتلألأ على وجوههم التى كساها الرضا ينبعث كالنور من جباههم الملس - لا غضون ولا تجاعيد ! كأنى بهم يحطون أحلامهم تحت قدمي إلههم وينسون فى مناجاته متاعبهم ، فيمسح بيده الحنون على رءوسهم مطمئنا يستمع لشكواهم وأشجانهم يثونها إليه ، ويلهمهم حل عقدهم ، وينفث فيهم الصبر والمثابرة ، فيقومون عن السجود وقد تساقط بعض نور يده على جباههم وأمحت الغضون بالسكر الإلهي . فيقبلون بروح فيّة نفث فيها الله من قوته على حياتهم الشاقة المضنية التى يستخلصون فيها اللقمة من بين مخالب الزمن بشق النفس ؛ فتعجب نحن من هؤلاء الوطنيين كيف يصبرون ويصابرون على ما هم فيه من ضنك وإرهاق عيش ويتسمون مع ذلك ، ولا يزال ينبض فيهم عرق المرح والدعابة ويحجبون « الحمد لله ! » على كل سؤال يوجه إليهم سواء استفهم المرء عن صحتهم أم دخلهم أم عملهم أم هأكلهم . أأست على حق فى تحليلي هذا يا « بدرية » ؟ » .

ثم تذكرت أن الشابة لن تفهم مما قالته حرفا ، لأنها لا تعرف

لغات . فاستدارت نحوها ضاحكة تنعت نفسها بالغفلة ، فسأت
الضحكة على شفيتها واتسعت حدقتها دهشة .

لم يكن هناك أثر لـ « بدرية » ؛ فقد تركت « ديانا » تسبح
في عالم الفكر ، وتسالت لتعدّ لضيفتها إبريقا من الشاي وبعض
شرايح الكبد المشوية وصحفة من الكعك والفطائر ، وأرسلت ابنتها
« عمر » وراء زوجها الشيخ « عبد الله » ليصعد ويرحب بضيفتهم
خلال فترة اشتغالها هي بإعداد صواني العشاء للمدعوين قبل
بدء الذكر .

ففوجئت « ديانا » برؤيته . فلم يقحم الشيخ « عبد الله » نفسه
على وحدتها ومناجاتها ، بل تقدم حتى وسط الحجره ثم أحجم
منتظرا وحبات سبحة ترتطم واحدة بالأخرى بين أصابعه ، وهو
يسبح ويرقبها باهتمام .

كان واقفا تحت المصباح المدلى من السقف بسلسلة حديدية
ترجح بهوادة وتؤدة بين الفينة والفينة . وكان النور يغمره بسناه
من عمامته إلى خفيه الأصفرين ، وقد تشابكت يده أمام صدره
ممسكين بالسبحة ، وبرز مرفقاها قليلا إلى الخارج . فانبط كماً
القبطان الواسعان على جانبيه ، كجناحين لم ينضما مكانهما
كل الانضمام . فبدأ لعيني « ديانا » المشدوهتين كأنما هو ملك هابط

على الفور من عليّ. وزادت هيئته الصورة التي فاجأتها توكيدا : فإن الشيخ « عبد الله » كان حديث السن لا يزيد عمره عن الثالثة أو الرابعة والعشرين وله سمة ابن الخامسة عشرة : طويلا نحيف القامة ضامرها ، يكسو وجهه الجميل شحوب يكمل جبهته العالية منسكبًا على صدغيه الغائرين حتى ذقنه المستديرة : وله وقار اكتسبه من طبيعة تعليمه الديني ، وصفاء نظرة ، وهدوء ابتسامه ، أضفت عليه مجتمعة طهارة ملائكية تمس شغاف القلوب أول وهلة .

فقتبث نظر « ديانا » به يلتهمه التهاما ، وحملت تفتح عينيها وتغمضهما تباعا بين مصدقة ومكذبة ، تخشى أن يتلاشى كالسراب عند القرب ، أو يتبخر كالحلم عند اليقظة ، فتسمرت مكانها تنأمله في تبثّل بعين الفنائه وقلب المرأة .

وأخيرا ، تحرك هو : تقدم خطوتين نحوها رافعا يديه إلى رأسه في تحية وترحيب ، ويقول بفرنسية صحيحة :
« مرحبا ! لقد شرفتنا السيدة بزيارتنا الليلة ! » .
وابتسم لها .

فانتفض قلبها بين ضلوعها لإشراقة ابتسامته التي أنارت صفحة وجهه الغض الصبيح كلها ، وانفرجت لها شفتاه الغليظتان شيئا في سداجة محبة .

فأجاب «ديانا» بحرارة: «أنا السعيدة بلقائك!».
واندفعت بعواطفها الجارحة في نزوة طارئة تمد له يديها
ككتهما، ورأسها يدور وقلبا المتعطرش أبداً إلى المغامرة يطل
من عينها.

فغض الشيخ «عبدالله» بصره إلى الأرض، وأغفل يديها
المدودتين، وربت صدره معتذراً بالوضوء عن مصاحتها. فاحتر
وجهها وعضت شفيتها وهي تنزل ذراعها إلى جانبيها ثانية. هذا
الغلام! كيف جرؤ! لم يحدث قط أن استخف رجل بجهاها
- وكل الرجال عندها سواء - لا يكاد يشع نور حتى يتهافتوا عليه
كالفرشات الرعناء تحرق أجنحتها وكأنما تستعذب حر اللهب
فتلقى بنفسها في النهاية إلى الهلاك. أما هذا... هذا الطفل!
وصرت «ديانا» بأسنانها بحرق متنبهة حواسها متيقظة غرائزها
تربص شباكها للصيد الجديد. لقد تعودت أن تختار رجالها
لا أن يختاروها هم، وجعلتها معرفتها الطويلة بهم سريعة البت
في اختيارها. ففي لحظة - ومضة عين - يهوى قلبها ويتلظى رغبة.
ولقد اختارت الآن. إنها تريد هذا؛ تريده بقوة. وسيأتي؛
سيأتي مختاراً طائعاً كسابقه. يستجدي نظرة ويستحلف لبسمة.
لقد تعودت أن تأمر فتطاع وترغب فتحرز.

وتلمل الشيخ «عبد الله» في إحراج وحيرة ، وهي ترمقه
بنظرات إعجاب صريحة نفذت إلى كل صغيرة وكبيرة فيه
واستشفت كل خالجة منه .

فلاذ بالكلام يشغلها به مطأطئ الرأس :

« أتعرفين عن حفل الليلة شينا ياسيدتي ؟ رأيت حلقة ذكر
قبل اليوم ؟ » .

فأخرجت نفسها قهراً من تأملاتها لتجيبه بشرود :

« من ؟ أنا ؟ كلا لم أعرف ؛ حدثني أنت » .

فأشار إلى أريكة يدعوها للجلوس ؛ فألقت بنفسها عليها تميل
على نخدها اليسرى نصف نائمة ، وتركز خدها على كفها رافعة إليه
عينين نفاذتين تنتظران .

واتخذ هو مجلسا بعيداً يواجهها على حشية من الحشايا ، وقبل
أن يفتح فمه اقتحم الحاج « سليمان » عليهما الحجره وبرفته « عمر »
الصغير وصاح في وجه ابنه لائماً :

« أنت هنا يا شيخ «عبد الله» والقوم يسألون عنك ؟ لقد

فرغوا من العشاء وهم في انتظارك الآن ليبدءوا الذكر » .

فهب واقفا وأوماً برأسه في اعتذار صامت « لديانا » وهروا

خارجا ؛ فجلس الحاج « سليمان » مكانه في حين قفزت « ديانا »

عن الأريكة ، وأسرعت إلى المشربية تطل على الشيخ « عبد الله » .
تحلق القوم في حلقة الذكر صفين متقابلين ووقف وسطهما
إمام المسجد الهرم يقود الجمع في ذكر الله ، ويرددون قوله
بصوت أجش منخفض راتب . فلما علا بازدياد حماسهم واشتد
تمايلهم تنحى الإمام لاهثا عن مكانه للشيخ « عبد الله » . فارتفع
صوته الشجي باستغاثات وابتهالات يرتلها على وقع الذكر ،
فتفيض الأعين بالدموع خشية وتهفو القلوب مرفرفة في الصدور
نشوى طامعة في كرم ربها وعفوه ؛ وتنطلق أغاريد النساء محية
مشجعة وهنّ يمسحن خدودهنّ المبللة .

وتسمرت « ديانا » في النافذة وعيناها معلقتان بالشيخ
« عبد الله » . ألهمت مشاعرها روعة جماله ، وأشعل غرائزها بُعد
مناله ؛ تركزت حواسها وتمثلت مطالبها فيه ، فلم تر شيئا ولم تسمع
شيئا ؛ أنساها وجوده سواه ، وكفاها عما عداه .

وإلى جانبها وقف الحاج « سليمان » يثرثر ، يلقى السؤال
فلا تجيب ، فينتقل بمرح إلى آخر ، ويهمس في أذنها بملحة فلا تتحرك
فيهب كنفه ويضحك هو ؛ حتى تقدم الليل ، وانفض الحفل ،
وانصرف الناس تباعا ، وخلت الساحة منهم جميعا ، وأطفئت
المصابيح المستأجرة وأخذها أصحابها ومضوا . وحملت « بدرية »

ابنها النائم ودخلت به حجرتها و«ديانا» في وقفها بعيون متلهفة
وقلب ثائر .

وهبت نسمة من أنسام الفجر أرعشها لسعة برودتها ؛
فاستدارت خلفها لترى الحاج «سليمان» يغط في النوم على أريكة
وقد التحف بعباءته الثقيلة .

فصاحت به تهز كتفه :

« يا حاج ! يا حاج ! أين الشيخ «عبد الله» يوصلني
إلى الفندق ؟ » .

فأجابها وهو يقفز واقفا :

« الشيخ «عبد الله» ؟ الشيخ «عبد الله» سيديت الليلة
في المسجد قائما يصلي ببقية الليل ، فهذا نذر كما تعلمين يجب عليه
أن يوفى به » .

فرمقته بنظرة حنق ، وزمت شفيتها في كمد ، واندفعت خارجة
من الحجرة ، والحاج «سليمان» يهرول خلفها ليوصلها بنفسه .

وطال ترددها بعد ذلك على منزل الحاج «سليمان» . كانت
إذا ما هاجها الشوق وبرح بها الوجد اندفعت هاربة من حجرتها
في ثورة عواطفها الجامحة وقتما يخزها شيطان أهوائها - ظهرا كان
أو ليلا - وانفلتت متسللة من الفندق لا تلوى على شيء ، دون

أن يتنبه لها رفقاًؤها . فتأخذ أول « ترام » يقابلها إلى حيّ
« الحسين » وتشتري في طريقتها فاكهة كثيرة وحلوى وفضائر تنوء
بحملها ، ولكنها تتجلد مستعذبة النصب ، كماؤمن يتجمل بالصبر
على العذاب في سبيل عقيدته .

فكان الجميع يرحبون بها وعلى الأخص « عمر » الصغير
لما تفيضه على مجلسها من بهجة وحبور ، ولما تدخله على
قلوبهم من سرور بهداياها الفخمة المتنوعة وسخائها البالغ طوال
فترة زيارتها .

أما الشيخ « عبدالله » فكان يزعم شفثيه في حزم ، ويدلف
إلى حجرته يغاقها عليه حين تطرق أذنيه الجابة التي تصحب
وصولها عادة من صياح ولده وتصفيقه ابتهاجا ، إلى عبارات
المديح والترحيب التي تكيها زوجته لها كيلا ؛ إلى هرولة أبيه
يفسح لها طريقا ويفرش لها الحصير في الشرفة ذات المشربية ،
فلم يغب عن الشيخ « عبدالله » ميلها نحوه وتعلقها به منذ أول
مقابلة لها . فضحتها نظراتها الجوعى وحركاتها الداعية ونبرات
صوتها تهديج وهي تحادثه أو تتحدث عنه إلى أحد أفراد أسرته .
فذهل بادئ ذي بدء ، وهاله الأمر ، فكذب نفسه ، وتجاهل
استعطاف عينها المبهلتين ، وظمأ شفثها المنفرجتين تلهفا كثررة

تين شققها النضج . وأصمّ وعيه عن نداء كيائها الصارخ في جموحه ،
فلم يفلح . لم ترتدع «ديانا» . زادها التجاهل هياما ، والفتور
اشتعالا . صدّ عنها قهالككت عليه . زجرها فترامت تحت قدميه .
جافاها فطاش صوابها وجنّ جنونها .

فلاذ بربه مستنجدا يسأله العصمة من الغواية . هجر البيت
وأصبح لا يلجئه إلا لما في غيابة الليل بعد أن يهجع الجميع
في مضاجعهم . أما النهار فيمضى جله في الأزهر الشريف مستزيدا
من تعاليمه منقبا بين أسفاره ينهل ولا يرتوى . فإذا ما عاد ييم وجهه
شطر المسجد «الحسيني» فيصلى العصر ، ويتخذ له مجلسا في ركن
قصي ويسترسل في التسبيح والتمجيد . فتزحف الأفكار إليه
متلصقة تسعى باحثه عن ثغرة في روحه تنفذ منها ، وتتجمع حوله
كالغيوم في تكاثف محومة تتربص به الفرص لتتنقض عليه متضاربة
تتجاذبه يمنة ويسرة . ويقبل عليه «إبليس» وقبيله يوسوسون
في صدره يسكبون في أذنه معسول الكلم والوعد . فيرزح عقله
البشرى تحت وطأة الهجوم ، ويكاد يتخاذل لولا بقية من عزيمة
يطوّحهم بها عنه بعيدا ، وينتفض كالمسوع مستعيذا بالله
من الوسواس الخناس ، وينطلق يجرأ بترتيل القرآن في صوت
شجيّ يجلجل في أرجاء المسجد فيحمله النسيم على أكفه الرقاق

عبر النوافذ والحرائط إلى المازة في الشوارع ، فيقفون حيث هم متلفتين حولهم ، كعبير المسك يفوح فيتنسم ريحه العباد ، حتى إذا تبينوا مصدر الصوت الرحيم نظر بعضهم إلى بعض يتشاورون في صمت ما يلبثون بعده أن يتركوا ما هم فيه ، ويدخلوا المسجد يحيطون بالشيخ « عبد الله » يستمعون إليه ويقاطعونه مرتدين :

« الله يفتح عليك يا شيخ ! زدنا زادك الله من بركاته ! » .

لم يقل هذا من عزم « ديانا » . كانت ترسل أباه وراءه يستدعيه ، يالح عليه وما يزال به حتى يرجع معه . فيلبي طلبها مرة ويخذلها مرات . يخلق الأعذار للتخلف وتحتاق الأسباب لحضوره . ظلا هكذا مدة ليست بالقصيرة بين مد وجزر ، حتى ضاق بها ذرعا وعيل صبرها عنه . فألقيا معا بالأقعة التي التزماها يقانلان خلفها ، وواجه أحدهما الآخر سافرين .

كانت ليلة عرفت « ديانا » خلالها أن الحاج « سليمان » وأسرتة ينوون عصر الغد عيادة مريض يمت لهم بصلة النسب يقيم في حي « باب الخلق » . وكانوا وقتئذ يجلسون إلى العشاء مفترشين الحشايا حول الصينية الواسعة المستديرة . فشعرت « ديانا » بقاها يفوص في جوفها وبرغبة قوية في البكاء . فتحيرت قطعة الكباب المغمورة

بالطحينة بين فمها ويدها التي ارتعشت مرفوعة في الهواء وتوقفت .
ثم تنهت لها «ديانا» فرجعته إلى الصحيفة في سكون وهي تعص
بريقها وتغضب ابتسامة أبت الخضوع فتلمصت وشجبت قبل
أن ترسم على شفيتها . وغاض الدم في وجهها وتركه ممتعا ،
ثم اندفع إليه ثانية بقوة يلهبه بلونه القاني ، وتمتمت هي بيضع
كلمات تعلمهم باشتغالها أيضا في اليوم عينه ، وباتواؤها التخلف تبعا
لذلك عن زيارتهم .

فتلوى قلبها للكلامها بين ضلوعها يتخبط صارخا محتجا ويركل
باكيا كطفل عنيد يأبى الإذعان . فضغطت «ديانا» بيدها عليه
تهدي من ثورته . فسألها الحاج «سايهان» وهو يلاحظها بعينه
الراقصتين ويض قطع فطير :
«أتشعرين بتعب يا بنى ؟» .

فزحزحت يدها بسرعة إلى معدتها وأجابته بهرح مفتعل :
«كلا يا أبت ! كل ما في الأمر أني امتلأت بطعامك الدسم !» .
فضحك الباقون ، وناولتها «بدرية» برتقالة وهي تحضها على
أكلها بنظرة من عينها المعبرتين وهمهمة من فمها المملوء بالطعام .
فأخذتها منه «ديانا» واتكأت على الحائط بظهرها ، وراحت
تقشرها ببطء وتفكير .

أما الحاج «سليمان» وقد سرّه جوابها فقد مدّ يده وتناوله شريحة أخرى من الفطير الساخن اللذيذ الذي ينضح عسلا وسمنا ، لعقها ومسح شفّيته بلسانه علّ قطرة تكون عالقة بهما ثمّ أعمل أسنانه في جانب الفطيرة ، يقضم القضمة ويلوكها في فمه بترقّ متلذذا ، ويتأمل الفجوة التي أحدثها أنيابه بإعجاب ، ويقلب الفطيرة في يده ذات اليمين وذات الشمال يمتع ناظره بجمع وجوهها ، حتى إذا فرغ فه ملاء مرة ثانية وعاد يتأمل النجوة الجديدة ، وهلم جزا .

أما «ديانا» فاشتدت المطاحنة بين عقلها الهزيل وقاها العاني الذي تعود الارتواء أينما اختار وكيفما شاء . يخوض المغامرة واثقا من النصر الساحق ، ثم يدوس بقسوة خارجا منها فوق مهاد من القلوب المكلومة سليما معافى لم تمسه شرارة مما يسمونه الحب . أمّا أن يستهان به ويصطدم بقاب يصمد أمامه ويستعصى عليه بل يهزمه ويسحقه بدوره ويصبح هو الفارس المغوار في كل جولة وصوله ؛ يرجف وجدا ويطير فرحا ويغض هما ويتلظى هياما ، فشيء جديد ...

لم تتم «ديانا» ليلتها تلك . ظلت تتقاب على فراش من جمر الهوى وتلذع بنيران فؤادها المستعرة ، حتى طلع الصبح وهي

حتى حالة عصبية لم تمكنها من مغادرة فراشها . ومرّ النهار فلم تشترك «ديانا» مع أفراد فرقتها في أكل ولا هو ، تطفئ لفاقة لتلقف غيرها ، وتعب الخرعبًا من زجاجة أمرت الخادم بإحضارها ، ثم أغلقت الحجره خلفه على نفسها وأفكارها . تستلقى برهة على ظهرها فوق أريكة ويمينيها لفاقة تحترق ببطء مثلها ، وبشمالها كأس مترعة ، ثم تنتفض واقفة وتقذف بهما جانبا وتروح وتجيء في أرجاء الحجره في ثورة عاصفة تضرب رأسها بقبضتها وتلكم كفا أو نخدا . تتأمل وجهها وقوامها في المرآة وتخطر أمامها باسمه مرة ثم ترتدى على الأرض ضارعة بأكف مضمومة مرة أخرى تناجي خيال حبيبها وتسأله منّة ورحمة .

فلما كان الغروب دلف إلى حجرتها زميلها «موريس» السمين ، ووقف يتأملها مدة طويلة . ثم دنا منها يحيط كتفها بذراعه :

«أى «ديانا» يا صغيرتى ! حب جديد ، أليس كذلك؟» ...
قلبا لم تجب أردف : «لا بأس . ولكن لماذا تفسدين حياتك من أجله ؟ سيمرّ كما مرّ سابقوه ولا تبقى إلا الذكرى ، ما تلبث هي الأخرى أن تشحب وتبعد حتى تزول ، فشورى أنت إذا ذكرك أحدنا به ا» .

فرفعت إليه نظرها مستنكرة . فأسرع يقول :
« لا تخافى . إني أعرف كل شيء . لم أفه بحرف لأحد .
ولكن أترينه يستحق كل هذا منك ؟ أتجيبه إلى هذا الحد ؟ » .
فبرقت عيناها بلهب عات غاشم ، وهمست بصوت مكلوم
كفحيح أفعى متوثبة :

« أحبه ؟ بل أهواه - أعبده - أرغب فيه بكل ما فى بدنى
من قوة وعنف ! » .

فهزَّ « موريس » رأسه ، ثم ألقى بقنبلته . سألها :
« وهو ؟ أبادلك هوى بهوى ووجدًا بوجد ؟ » .

فصرخت فيه والخمر تفوح من فيها :
« أتسخر منى ؟ » .

فربت شعرها معتذرا يهدئ من روعها وقد فهم الموقف .
وأردفت هى وبصرها عبر النافذة يتطلع إلى أفق بعيد :
« سيحبني حتما . سأجعله يهوانى . يجب أن يهوانى . كلهم فعل
وهو لا بد فاعل . هو صغير - صغير جدا - طفل لا يفقه
من الحب إلا الزواج ! » .

فقال لها « موريس » فى لهجة من يحتال لطفله :
« نعم ، نعم سيهواك بلا شك يوما . أما الآن فهيا بنا إلى العمل

الذى نأكل منه عيشا ، فإن الرئيس غاضب قد ضاق بتغييك المتكرر وتخلفك دون إبداء أسباب . ولقد هدد أمس بفصلك إن انقطعت بعد ذلك .

فصرخت تدق الأرض بقدمها :

« أبالعزل هددنى ؟ وافرحتاه ! أو جرؤ ؟ إذن قل له إني مستقيلة . أريد أن أكون حرة أحيائى على هواى بلا قيد ، ولا أخضع لإنسان أئتمر بأوامره . قل له إني لا أريد أن أرى وجهه الأغبى بعد اليوم ! أسمع أنت ؟ » .

فصاح « موريس » :

« أى «ديانا» ، «ديانا» ! أرجوك أن تترقى ! أتستقيلين ؟ من أين إذن تأكلين ؟ وكيف تعيشين ؟ أتلقين بنفسك إلى هاوية الانحدار السحيقة راغبة ؟ «ديانا» ، أرجوك يافئتى ! » .

فخرجت عن طورها وصاحت به تدفعه نحو الباب :

« أنا فى تمام عقلى ومنتهى رزائى . وسأفعل ما قلت . أما أنت فإذا كنت بحق صديق فأحضر لى معك باقى مرتبى واضرب صفحا عن شئونى الخاصة . لا تزج بأنفك فيها فيخرج داميا ملكوما ! والآن مع السلامة ! » .

وصفقت الباب وراءه ، ورجعت إلى فراشها تترنح من ثقل

الخنزير ! فألقت بنفسها عليه ، وما كادت تفعل حتى راحت في سبات عميق ، استيقظت منه لتجد الحجرة تسبح في ظلام دامس . فهضت تتحسس طريقها إلى النافذة وفتحتها على مصراعها ، وأخرجت رأسها منها على النسيم الرطب يخفف من حدة الألم الذى ينبض فيه .

كان الليل قد أرخى سدوله - وللليل همساته ولمزاته - وأضنى على الكون شاعرية وخيالا يلهان الأحاسيس ويوحيان بأرق المشاعر . وأطل القمر بجيا من وراء غمامة يرسل شعاعا ناعما مثيراً أشد حرارة من الشمس وأبعد أثرا . فرفعت « ديانا » وجهها إليه متبلة كأنما هى كاهنة وثنية ، وأغمضت عينها نشوى فى حين تدفق الدم حارا طاغيا فى عروقها ، واهتزت مجاوبة له فى انفعال . هبت واقفة تفرك يديها فى عصبية وحيرة : « كيف أمضى ليلة كتلك وحيدة بين جدران أربعة - ليلة لم تخلق إلا للحب . أين حبيب الروح منى الساعة ؟ أو اه يا قلبي ! أو اه يا جسدى ! تعبدانه وتشتهبانه وهو أصم أعمى عنكما ! تكثويان بفتوره وتلهبان ببروده ! تعيدشان به وهو عنكما لاه ! أو اه يا ربى ! »

كانت قد تعودت زيارتهم حتى آدمنت صحبتهم وصار لا يطيب لها مقام إلا بينهم . وعلى أمل رؤية الشيخ « عبد الله » أو الجلوس

إليه دقائق قد تمضى اليوم بطوله معهم متنقلة قلقة بين الأريكة والنافذة . ولكنه كان أملا على كل حال . أما أنها لا تذهب قطعا يوما . . . دهرا بطوله ، فشىء محال - محال فوق الاحتمال ! ولكن . ماذا يمنعها ؟ اعتدلت « ديانا » في جلستها وقلبا يخفق للسؤال الطارئ . نعم والله ماذا يمنعها من الذهاب ؟ ولو لتتشم ريحه وتستنشق الهواء الذى مر على جبهته وتمتع ناظرها بيته وإن غاب عنه ، وتشترى علبه من لفائفه المفضلة ، وتحادث عم « متولى » البائع عنه . ماذا يمنعها أو يضيرها ؟ بالعكس . ستهدا أعصابها وتطيب نفسها . ويبرد غليلها شيئا . فأسرت ترتدى ملابسها متأنقة فى اختيارها متزينة أبداع زينة . وتحلت بجواهرها وتعطرت وتممقت وسمحت لخصلة نافرة من شعرها الحريرى أن تنفلت من عصابة رأسها المزركشة ، وتنزلق مترجحة فوق حاجبها الأيسر فى إغراء ودلال .

ثم تسلت كعادتها من الفندق ، ووجهتها حتى « الحسين » . لم يشرب الحاج « سليمان » قهوة العصر ذلك اليوم ، فقد خرج بعد أن تناولوا غداءهم على الفور مصطحبا « بدرية » وابنها . أما الشيخ « عبد الله » فتخلف إذ كان قد زار قريبهم المريض هذا عدة مرات على حدة . ولكنه خرج معهم وأوصلهم إلى « الترام »

حتى إذا سار بهم قفل قاصدا إلى المسجد حيث اتخذ مجلسا وسط زمرة من صحابه . وما زالوا يتذكرون في تفسير آية كريمة ، ويتناقشون في تأويل أحد الأحاديث الشريفة حتى أذن المؤذن لصلاة المغرب . فصلوها جماعة يؤمهم الشيخ « عبد الله » ولما فرغوا أقرأهم السلام ويم وجهه شطر البيت تداعبه فكرة خلوه وسكونه . طالما تمناهما من زمن ! السكون والوحدة اللاحق في مخيلته أمسية هادئة يمضيها وحيدا بعد أن يفتح نوافذ المشربية كلها ويوقد السراج ، ثم يتربع فوق الحشية الناعمة يقرأ أو يكتب وبجانبه صحفة من الترمس اللذيذ يؤانسه ويذهب وحشته . فإذا ثقلت جفونه وتسلسل النعاس إليهما تمطى في بجوحة واستسلم له مرحبا سعيدا .

اشترت «ديانا» علبة من لفائف التبغ ، وتحذت إلى العم «متولى» بعض الساعة وردت التحية ذاهلة على امرأة أو اثنتين من الجيرة ، ثم سارت متقلبة بين الأزقة والحارات تطوف بالبيوت تلس جدرانها هامسة مسائلة تكاد تنطق بقول المجنون :
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا
تتهند عن فؤاد منفطر يعتصر اعتصارا وتنتزع الزفرات
حارة من أعماقها تمزقها وتزلزل كيانها . تلسع دموع الوله عيونها

المحدقة ، وتخفق عبرات الجوى حلقها وصوتها . حالها كحال
الشاعر حين قال :

أنا والله هالك آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي قد أفاقت قيامتي

ثم حملتها قدماها إلى بيت الحاج «سليمان» . فتوقفت أمامه
مشدوهة تكذب بصرها وضربات قلبها تدق كقرع الطبول
في آذانها . أحق ماترى ؟ أم خيَّله عقلها المتعب وروحها العطشى ؟
أنور هذا الذي يتلألأ في المشربية الحبيبة ؟

طرقت الباب بيد ترتعش ، ففتحت لها امرأة من الساكنات
تعرفها ، ضحكت في وجهها مرحة ، وفسحت لها الطريق وهي
تشير إلى الطبقة العليا :

« الشيخ «عبد الله» موجود فوق وحده ! تفضلي . تفضلي .

لأن يمر كثير حتى يرجع الحاج «سليمان» و «بدرية» ! » .

فاستندت «ديانا» إلى درابزين السلم الخشبي ، حتى ملكت
شئنا نفسها ، ثم صعدت إليه بخطى متدة وأوصال مرتجفة .
وحيدا . أى فرصة ! أى هبة إلهية ! طالما انتظرتها ! طالما
ابتهلت من أجلها ! وحيدا ! حبيبي ! منى الروح وجبة الفؤاد !
وحيدا ! وحيدا ! وحيدا !

طوت «ديانا» الدرجات على وقع ترديد قلبها ، حتى وصلت
للاهثة تنصب عرقا . فدفعت الباب ودلفت بتلصص من حجرة
إلى حجرة ، حتى بلغت المشربية حيث توقفت على عتبتها خاشعة
كأنها في حرم قدسى .

كان الشيخ «عبدالله» يختتم يومه ، يتمم ببعض الآيات
القرآنية التي تعود تلاوتها قبل النوم :

« لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنثتم حريصٌ
عليكم بالموءنين رءوفٌ رحيمٌ . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله
إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرش العظيم » .

« صدق الله العظيم » .

ومسح على رأسه ووجهه . فوقع بصره فجأة على «ديانا»
تتلاؤلا كنجم هبط من السماء في أجمل حلة وأبدع زينة ، وتنفجر
أنوثة وروعة كأنها جنية انشقت عنها الأرض ، يطل قلبها من
عينها ضارعا ، ويخلج كل عضو في جسدها رغبة وهياما .

فتسمرت حدقتاه بها كأنما هي شبح صوّره خياله المرهق
وجسمته عواطفه المسكوبة . فظل محذقا في صمت يتأملها بعينه
«العبيقتين الأمينتين على سرهما...»

ورأت «ديانا» في وجهه الشاحب المرفوع إليها بهاء وسناء

يجذبانها ويقيدانها كفراشة تحوم باحثة عن نور ، فتجده يشع
وسط ظلام داهس ، لا شيء عداه هناك يؤانسها ، ولا شيء سواه .
هناك لروحها شفاء .

فانحنت بجمرة كهني ، وأخذت وجهه الوسيم الغض بين
كفيها ، وهوت بشفتيها المحمومتين تضغط على شفتيه . ثم أقلت
بنفسها بين أحضانه تمرغ رأسها في صدره وتضربه بقبضتها
ضربات خفافا كأنما تهيب بمشاعره أن تستيقظ وبحواسه أن
تجاوبها ، وهمست بصوت يتحشرج انفعالا :
« هيت لك ! » .

فانتفض الشيخ « عبد الله » في زعر كأنما سقطت في أحضانه
رقطاء تتلوى ، وطوح بها جانبا ، وهبّ واقفا وهو يصيح :
« وإما يزعنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو
السميع العليم » .

فتشبثت « ديانا » بذيل قفطانه ودموعها تسيل وجدا وكدا .
فاستدار نحوها وبصره عالق بالسماء ، وهمس في صوت مضطرب :
« سيدتي ، أعرضي عن هذا واستغفري لربك . إن الله
واسع المغفرة ! » .

فتأوت على الأرض تزحف نحوه ، وأحاطت قدميه بذراعيها :



فتشبت «ديانا» بذيل قفطانه ودموعها تسيل وجدا وكندا ...

« أستغفره ؟ لماذا ؟ بل قل أحمده ! لقد وضعك في طريق ،
هدانى إليك ، أحبك وأهواك ، وأجد فيك سكن قلبي بعد طول
بحث وتقلب . أو اه يا حبيبي ! » .

فأنحنى يخلص قدميه من قبضتها . فتخلت عنهما بغتة ، وأطبقت
في ملح البصر على عنقه تجذبه إليها . فاختل توازنه وهوى أرضا
إلى جانبها .

وهبت نسمة معربة صفعت السراج فانظفأ ...

وهلل « إبليس » ورقص وقبيله طربا . ثم تكاثروا على الشيخ
يلجمونه ويكبّلونه . يخزونه بسنان حراهم النارية ، ويلهبون
جسده بفحيح أنفاسهم الجهنمية . فشعر بالدم يتبلور في عروقه
كفتات الزجاج ، وأحس بدبيب نمل يسعى في لحمه . ودار رأسه
وساخت الأرض تحته . ودوى في أذنيه طنين مصمم لأصوات
منكرة تدعوه إلى الوليمة ، تحضه عليها تارة ، وتسخر من تهبه
مقهقهة تارة أخرى . تصوّر له الخطيئة فردوس لذات ، فيه من
البهجة والأنس مسرات . تمسخ طهارته ضعفا ، وتنتع تمسكه
بالفضيلة بلها ، وترمى قلبه الأمين بالبلادة ، فتحاملت روحه مستميتة
وأطلت زائغة العين من وسط الدوامة الجارفة تجار مستغيثة ،
كغريق يقاتل تيارا عاتيا يستقوى تباعا على حين تتضاءل مقاومته

وتضعف . ورفع الشيخ بصره مرة أخيرة نحو السماء تتجاوب
بين أضلعه ضراعة « يوسف » :
« وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من
الجاهلين » .

فاستجاب له ربه ، وعصمه في اللحظة الحاسمة ، وأنزل الحشية
منه على قلبه بردا وسلاما بعد أن همت به وهمّ بها . فدفعها عنه
بعنف وتقزز ، ودموع الفرح تظفر من عينيه مدرارا ، وجمجم
وهو يشهق ويشرق بالنحيب :

« الحمد لله الذى يطهرنا ويكينا ويمنع عنا الرجس ! » .

وهب واقفا ينشد الباب يبغى فرارا . فجئن جنون « ديانا »
وقد أفلت الطائر وكان من نخها قاب قوسين أو أدنى . فصرخت
صرخة نكراء ، وألقت بنفسها عليه ثانية تتعلق بقفطانه فى استماتة ،
يجذب نفسه بعيدا بحزم ، فانشق الثوب نصفين . فأخرج ذراعيه
من أكمامه بسرعة ، وترك قفطانه يسقط فوق وجهها ، وولى هو
هاربا من حجرة الفتنة يستعيز بالله من شياطين الإنس قبل الجن .
وجلجل أذان العشاء يشق دياجير الظلام كسيوف البرق .
فهوول الشيخ « عبد الله » لاثذا بالمسجد منفوش الشعر مشعث
الملابس . وطال سجوده ، وامتد سهاده إلى الفجر قائما يصلى

«ستغفرا مسترحما .

وأمر أهل بيته منذ ذلك اليوم بالإقلال من ترحيهم «بديانا» فوجوا . سألوه إيضاحا ، فصمت . كرروا السؤال ، فتنصل . فلما ألقوا لمعرفة السبب الذي يحدوه على إغلاق الباب في وجه من أغرقهم بفيض كرمها ثار على غير عادته ، وأصر صاحبها على تنفيذ رأيه دون إبداء أسباب .

وجاءت «ديانا» لزيارتهم في الغداة . فقابلتها «بدرية» على رأس الحارة حيث وقفت تنتظرها ، وقادتها من يدها وهي تبتمس لها مرحبة إلى منزل جارتهم «أم فلفل» ، فسارت «ديانا» معها في استسلام تسألها بين الفينة والفينة باسمته :

إلى أين تأخذيني يا «بدرية» ؟ .

فلا تفهم «بدرية» بل تتسع ابتسامتها وتربت كتفها تطمئنها . وفي «نزل «أم فلفل» لحق بهما الحاج «سليمان» . فتعالت عينا «ديانا» به مسائلة :

«ما الخبر؟ أجد شيء؟» .

وتضرب وجهها ، وحبت أنفاسها ، وآذنها مرهفة .

فهز الحاج «سليمان» رأسه بأسف وتمتم :

«أنا يا بنتي والله لا أعرف كيف أبدأ كلامي . أرجو أن

تَعذِرُنِي فَلَيْسَ بِيَدِي حِيلَةٌ . يَبْدُو أَنَّ ابْنَ جَنِّ أَوْ مَسَّهُ طَائِفٌ
إِذْ أَصْبَحَ وَهُوَ يَصْرُ عَلَى مَنَعِ النَّاسِ مِنْ زِيَارَتِنَا . وَلَسْتُ وَاللَّهِ
أَدْرَى لِهَذَا سَبَبًا ! .

وَهَمَسْتُ « بَدْرِيَّةُ » لِحَمِيهَا :

« أَعْتَقِدُ يَا عَمِّي أَنَّ الشَّيْخَ « عَبْدِ اللَّهِ » لَيْسَ رَاضِيًا عَنْ مَهْنَةِ
الرَّقْصِ وَالغَنَاءِ الَّتِي تَحْتَرِفُهَا السَّيِّدَةُ « دِيَانَا » . وَلَقَدْ رَأَيْتَهُ بِالْأَمْسِ
يَقْذِفُ مِنَ النَّافِذَةِ بِقِرَاطَيْسِ الْحَلْوَى وَالْفَاكِهِةِ الَّتِي جَلِبَتْهَا لِابْنِ
« عَمْرٍ » وَهُوَ يَهْدُرُ : « تَاللَّهِ إِنَّ قَرَشَهَا لِمُدْنَسٌ ! » .

وَكَانَتْ « دِيَانَا » تَتَّبِعُ حَدِيثَهُمْ . فَصَاحَتْ بِالْحَاجِّ « سَالِمَانَ » وَقَدْ
شَحِبَ وَجْهَهَا وَجَفَّ رِيْقُهَا :

« مَاذَا تَقُولُ « بَدْرِيَّةُ » عَنِّي وَعَنِ الشَّيْخِ « عَبْدِ اللَّهِ » ؟ تَرْجِمُهُ لِي
- تَرْجِمْ لِي قَوْلَهَا - أَرْجُوكَ ! » .

فَإُولِ الْحَاجِّ أَنْ يَرَاوِغَهَا وَيَتَخَلَّصَ مِنْ إِجَابَتِهَا ، وَلَكِنَّمَا
أَلْحَفْتُ تَسْتَحْلِفُهُ بِكُلِّ غَالٍ حَتَّى أَذْعَنَ .

فَمَا سَمِعْتُ قَوْلَهُ حَتَّى تَنَفَّسْتُ الصَّعْدَاءَ ، وَتَرَخْتُ قَوَاهَا بَعْدَ
تَوْتَرٍ . ثُمَّ قَالَتْ :

« لَقَدْ ظَنَنْتُ مَا هُوَ أَبْعَدُ . أَمَا هَذَا فَشَيْءٌ هَيِّنٌ . فَإِنِّي أَنَا أَيْضًا
لَسْتُ رَاضِيَةً عَنْ حَالِي وَعَمَلِي . وَلَقَدْ اسْتَقَلَّتْ مِنْهُ بِالْأَمْسِ

وأتوى كسب عيشي عن طريق شريف ليرضى عنى الشيخ
« عبد الله ا » . ثم أردفت زافرة : « وسيرضى ا » همستها لنفسها
وعيناها تسبحان فى حلم جميل .

فصاح الحاج « سليمان » :

« استقلت ؟ أحقا تقولين ؟ أو من أجلنا ؟ » .

وانتفخت أوداجه غرورا . فأجابته « ديانا » بهدوء :

« لقد اشتريتم بدنياى ، وفضلتم على رفقائى ، ورجحت

كفتمك أمام قلبى على عشيرتى ا » .

ولم تعد « ديانا » إلى الفندق إلا وقد استأجرت حجرة
فى منزل « أم فلفل » ، رحيبة شاهقة ذات نافذتين تطل إحداهما
على الفناء والأخرى على الشارع . وفى اليوم التالى جاءت بجوانجها
وحقائبها ، واشترت حصيرة مزركشة الوسط برسوم خضر
وسرير ذى أربعة أعمدة وما يتبعه من فراش . ثم نظمت مسكنها
الجديد تعاونها « بدرية » و « أم فلفل » وأضفت عليه من روحها
وفرسيها ما أحاله إلى عيش فنان لا ينقصه الجمال ولا الشذوذ .
فبينما تشمخ فى ركن زهرية يابانية دقيقة النقوش ذات عنق طويل
أهيف كعنق الغزال ، إذ يواجهها فى الركن المقابل صحن نحاسى
تقع فوقه قلة فخارية مبخرة تترع بماء النيل . وبينما تكمن

إلى جانب أريكة بلدية غطاؤها مزركش بورود فاقعة اللون ،
تدلى من فوقها لوحة فنية رائعة تمثل نفرا من الخيالة في عهد
نابليون يتحادثون في غابة ، منهم راجل ومنهم على صهوة الجياد .
واشترت بياق مرتبها « آلة خياطة » وأعلنت في الحى عن
استعدادها لحياكة الملابس . فأنهالت عليها العروض والطلبات من
النساء ، كلُّ تريدان تلبس ثوبا من صنع « الإفرنجية » كما أطلقوا عليها .
فبسط عيشها ، وطاب مقاهها . ولكن غرامها كان يستقوى عليها
يلبل أفكارها ويضيق خلقها ويلهب حواسها ، فتهجر حجرتها
وتترك الأثواب على الأرض كما هى ، وتمضى النهار هائمة على
وجهها تنفرس فى الوجوه محومة حول بيت حبيها .

واستمع الشيخ « عبد الله » مطأطئ الرأس غارقا فى الفكر إلى
زوجه تروى أبناء « ديانا » بحماس ، وسبحته التى لا تفارقه بين
أنامله تحصى عليه ترديداته وتسديحاته . وكان لا يعلق بشئ على
ما يسمع . فإذا سأله « بدرية » عن رأيه فى الخطوة الحاسمة التى
أخذتها صديقتها ، والنضحية التى تحملتها من أجلهم ، تتم وهو يشيح
بوجهه :

مالنا ولها ! هداها الله . الله يتولى عباده ! .
ولكنه تجنب فى دخوله وخروجه من الحى المرور أمام

منزل « أم فلفل » . إذ كانت غرفة « ديانا » في الطبقة الأرضية ،
وقد زوّدت قاعدة النافذة العريضة المطلة على الشارع بحشية
واتخذتها مجلسا مختارا تلاحظ منه الغادين والراحين ، ولا تفوتها
فائتة مما يجري في الحارة والجيرة بأكملها . إلى أن كان يوم زار فيه
الشيخ « عبد الله » نفر من العلماء وأساتذته في الأزهر الشريف .
دعاهم ليتناولوا العشاء عنده ، ويتناقشوا في بعض الأمور المتعلقة
برواقهم . فلما هموا بالانصراف صحبهم إلى الشارع وسار معهم
يحمل مصباحا ينير لهم به طرقات الحى المتعرجة . وقد أراد في
سيره أن يتحاشى الحارة التى تقيم بها « ديانا » ولكن كبيرهم اندفع
يدخلها قائلا :

« من هنا أقصر طريق يا شيخ « عبد الله » ! لا تنس أنى
ولدت ونشأت فى حى « الحسين » رضى الله عنه ! » .

فصمت على مضض ، وتبعهم فى استسلام . حتى إذا كانوا
أمام دار « أم فلفل » وكانت ليلة حارة ثقل فيها الهواء وتكاثفت
رطوبته ، رأوا « ديانا » تقف على عتبة الباب تلاحظ ضاحكة جمعا
من الأطفال يلهون ، وقد ارتدت ثوبا فاضحا ههنافا متقلص
الأكمام لا يكاد يصل إلى ركبتها ، وتستدير فتحة عنقه وتتسع
حتى يظهر أعلى نهديهما النافرين . وعقصت شعرها الحالك إلى أعلى

بشريط أحمر فاقع ، وانتعلت حذاء صيفيا ذا شرائط رفيعة حمراء -
صورة رائعة أخاذة للجمال الفاجر .

فوجم العلماء وتوقفوا لحظة ينظرون إليها شزرا ، ثم التفتوا
إلى الشيخ « عبد الله » مسائلين :
« مَنْ هذه الفاجرة ؟ » .

فعبس وقطب جبينه وهو يجيب :
« دخيلة أجنبية يدعونها فنانة » .

وأنزل يده بالمصباح ليدراً عن وجهه النور . ولكن سبق
السيوف العذل . فقد لمحته « ديانا » فهتفت من أعماقها باسمه
كما يهتف المرء مناديا ربه بعد طول نأى . وركضت إليه في لهفة
وشفتاها منفرجتان تنحرقان شوقا ، وعيناها والهتان تفيضان
هوى . وألقت بنفسها تحتضن ذراعه ضاغطة بيده على قلبها .

وذهل الجمع . وشحب وجه الشيخ « عبد الله » وجنّ جنونه .
فدفعها عنه بوحشية ، كأنما هي برّصاء يرهب عدواها ، فارتطمت
بالجدار المقابل وسقطت على الأرض .

وتابع سيره مع ضيوفه ، وهو يتمتم :

« قطط مسعورة ! أعاذنا الله ولطف بنا ! » .

وأوصلهم إلى « الترام » ومرآجل غضبه تغلى ، وعاد

من الطريق عينه وفي نفسه أشياء . فوجد حفنة من النساء ملتفات حول «ديانا» تنضح إحداهن وجهها بالماء ، وتلك أخرى قدميها ، وثالثة كفيها ، فاقترب حتى حاذهن ؛ فتنطّعت امرأة مسنة بالإيضاح :

« وجدت «الإفريقية» مغشيا عليها جنب الحائط والأطفال حولها حيارى . فناديت «أم فلفل» و «أم شربات» لنسعفها . ثم تمصت شفتيها وأردفت : «مسكينة والله هذه المرأة!» .
وفتحت «ديانا» عينيها ، وراحت تنظر إلى الشيخ «عبد الله» نظرات ذليلة خاضعة آتًا ، متبثلة آتًا آخر . فضم عباة حوله بإحكام كأنما يخشى عليها التاوث ، وقال لها بالفرنسية :

« ألا تقلعين عن غيك ؟ لقد صبرت عليك ورضيت بحيرتك ، إذ ظننت أن الله قد منّ عليك بالهدى . ولكنك تماديت وأضلك الشيطان ، حتى لم يعد هناك بدٌّ من تدخلتي . قسما بالله إن لم تلزمني حدود التحشم والدين - إن كان لك دين - لأحاربنك حربا شعواء ، حتى يرمك الناس المغشوشون فيك بالحجارة والطين ! أتعين ما أقول ؟ » .

واستدار قافلا . فرفعت نفسها على مرفقيها منادية تقبّل شفاتها الكلمات وهي خارجة من بينهما :

« عبد الله - حبيبي ! » .

فدار على عقبيه ، وقد طاش صوابه ، وتطائر الشرر من
عينه ، وبصق بصقة تحمير تطائر رذاذها فأصاب ذراعيها
الممدودتين ونخذيها العاريتين . ومضى لا يلوى على شيء .

فقالت إحدى النساء تطيب خاطرها :

« ما عليك يا بنتي . فما له بالنساء شأن » .

فأجابتها « ديانا » بعريبتها الركيكة التي بدأت تلتقطها على مرّ

الأيام ، ودموع الحنق تسيل على صدغها :

« هو يكرهني ! » .

فقالت المرأة باسمته :

« لا أظن . كل ما في الأمر أنّ طيورنا تجفل من الحسن

المكشوف . وعلى الأخص هو . فإنه رجل طاهر كله بركة

على الرغم من حداثة سنّه . ما عليك . خذي - خذي يا بنتي غطّي

نفسك ! » وخلعت المرأة عن نفسها ملاءتها وألقته حول « ديانا » .

وعلقت « أم فلفل » على الحديث بلهجتها الزنجية :

« الجمال يا بنتي كالطعام ، إذا ترك في العراء وخامر الإنسان

شك في حوم الذباب حوله عافته نفسه . رأس مال المرأة منا هنا

عفتها . ويزنها رجالنا على هذا الأساس . وكلما بعدت على المنال

ثقلت موازينها . الرجل يتمسك بامرأته المحتشمة ولو كان نصيبها من الجمال كمنصبي ! ، وأغرقت في الضحك : « خذيني أنا مثلا ! والنبي يعبدني زوجي المعلم « حنفي » عبادة ! والظلام أبي ، والليل أخى ! » .

وعت «ديانا» الدرس : « طيورنا تجفل . على الأخص هو . الجمال . الزواج . . . فتبدل مظهرها . تمثت بنساء الحى وحاكت لنفسها ثيابا كثيابهن القطنية ذات الأكام الطويلة والصدر المستور ، وتعلمت أن ترتدى الملامة السوداء وتلفها حولها بإحكام ، وتسدل على وجهها نقابا . وقللت من أصباغها وخروجها . أقنعها المنطق وإن حرق أحشاءها . فاستمسكت شيئا ، وأغرقت قلبها في عملها تبرده حار عواطفها . وقصرت زياراتها على جاراتها : تمرض العليل ، وتسعف الملهوف ، وتهديئ الطفل العنيد ، تغسله وتطعمه وتساعد أمه في عملها ، وتسرع إلى غرفتها لحظة ما يعود أبوه . صادقتها البنات ، فعلتهن أشغال الإبرة والحياكة . أحبها النساء فأعطتهن جلّ وقتها .

وقرأت يوما في جريدة فرنسية عن مسابقة لقصة تطرق موضوعا جديدا . فبعثت إليها بقصتها - مقتطفات من حياتها كراقصة تحط الرجال في كل بلد فترة ، ومقتطفات من حياتها

الجديدة حيث حطت الراقصة الرحال آخر مرة، واختارت
المقام بعد طول مطاف، وماتت لتبعث من جديد . وأطلقت
على قصتها اسم « البعث » فنجحت نجاحا باهرا ، وفازت
بالجائزة الأولى : لطرافة روايتها ، وصدقها ، ودقة تصويرها .
وأشادت بها الجريدة صاحبة المسابقة وصفقت . فشجعها ذلك على
طرق هذا الباب بين حين وحين كلما احتاجت لمزيد مال . فأخذت
ترسل إلى المجلات والصحف وصفا لمختلف النواحي الاجتماعية في
مستقرها الذي تبنته . صوّرت بقلها الفنان حفلة سبوع وحفلة
زواج وغيرهما من تقاليد القوم وعاداتهم . وأحيت على الورق
شخصيات من الحى تستأهل التخليد كإمام المسجد ومنزلته في قومه .
وشيخ الحارة ، والمأذون ، وبائع العرقسوس العتيق بثيابه التقليدية،
و « أم بكير » بائعة المحشى وفتوة الحى في الوقت عينه ، و « أم
بخاطرها » الخاطبة التي فاقت الساسة في اللباقة وقوة الحجّة
والتوفيق بين الناس .

فوجدت الصحف الأجنبية المحلية والخارجية في كتابات
« ديانا » لونا طريفا جذابا . فراجت سوقها ، ووجدت هي
لعراطفها منفشا . وأعانها كسبها من الكتابة والحياسة على العيش
في بجموحة . ولكنها كانت كريمة ومبذرة . تغدق على جيرانها

ولا تمسك ، وتفقد في وجوه الخير كالمحمومة تكفيرا وتقربا إلى الله الذي يعبده كل من حولها . يصلون له ويصومون شهرا طويلا مستعذبين الجوع والعطش ، ويفطرون على كسرة وعود بجل ثم يقبلون أيديهم ظهرا وبطنا يثنون عليه ويحمدونه . ذكره على أطراف ألسنتهم يندمج في كلامهم سواء أكان عن المرض أم الصحة أم الأولاد أم العسر أم اليسر . يهابونه ويعملون ألف حساب ليوم حسابه . فينزل سكينته على قلوبهم ويجزيهم هدوء نفس وراحة بال وقناعة ، ويتكفل بهم دنيا وآخرة .

ففتش قلب « ديانا » القلق المتخبط للنور يشق طريقا داخله حينئذ ، كسكين يقطع في الأوهام المتكاثفة عليه كنبات اللبلاب ينمو في تكاثف مترابك على الأسوار . فكانت تستمع للأذان يجلجل ، فتجاوب أصداؤه داخلها يهزها هذا تكاد تنفطر به وقلبا يرجف وروحها تهفو . وانقشعت غيوم الشك والغموض الجائمة على عقلها شيئا فشيئا وهي تلتهم عن اليمين وعن الشمال تعاليم الدين الواسع السمح . تتأمل وجها من الوجوه السمر المحيطة بها ، تبسم شفاهه الغليظة دائما ، صافية عيونه القانعة دائما ، فتشعر بنشوة وانسراح ، وقد وقفت على سر هنائه المنبثق من أعماقه الذي طالما حيرها ، ووضعت قدمها على أولى درجات السلم

الثابت المرتكز على صخرة الإيمان الموصل إلى هدوء الروح واستقرارها . وتأثر حسها المرهف بيئتها الجديدة الظاهرة المتساحمة المسالمة لجاراتها . واستراحت نفسها لتلك الفلسفة الشعبية الواثقة في اطمئنان : « أعط والله يعطى » المتغلغلة في النفوس حولها ، فاعتنقتها وبزت فيها الجميع . فلم يكفها مال ، ولم يدم في يديها إلا ريثما ينطلق منهما . فأخذت تعمل ليل نهار . تحوك طوال اليوم وتسهر شطرا كبيرا من الليل تنمق مقالة أو تنفن في سرد وقائع قصة .

ولكنها وسط دوامة العمل التي جرفتها ترهقها مختارة لم تنس جها لحظة ، وإن هدأ من فورته شيئا اشتغالها بالدين . ككل جديد لديها يخفف من غلواء سابقه ولا ينتقصه . فأضحى غرامها بالشيخ « عبد الله » كنار الجذوة الهادئة في ثبات يستعر حطبها بعد أن خفضت السنة لها . فلا يذكر اسمه أمامها أو يتحدث اثنان عن شأن من شؤونه حتى ترفع رأسها المكدود عن الطاحونة التي قيدت نفسها إليها تذيب فتات قواها وتنضب جويتها الفائضة ، فتلقط الكلمات بشوق تنقوت بها بقلب خافق وعيون حاملة .

ومرت الشهور . وبلغت أخبار تحشمها وأعمالها مسامع الشيخ

« عبد الله ، . فhez رأسه رِضًا . وبلغها ذلك ، فاستماتت في إرضائه ، إلى أن قالوا له يوما إنها سقطت فريسة الحمى . وترددت « بدرية » على مسكنها تخدمها وتسهر عليها أسبوعا أو اثنين . ثم اشتدت عليها العلة وزاد الخطر على حياتها . وأيس الطيب الذى جاءوا به يعودها ، وقال للنساء حولها وهو يحك ذقنه في حيرة :

« إنها لا تقاوم البتة كأنما لا تريد أن تعيش . إن مرضها ليس بالخطير ولا يستعصى على دواء ، ولكنها هي - هي بذاتها - تقف حجر عثرة في طريق شفائها . كأنى بنفسيتها ساحة وغى يدور فيها القتال على أشده فيتداعى بدنها مهتدا من قسوة الحرب القائمة داخله . »

ورفع كتفيه وخفضهما ثانية في استسلام ، ثم أردف مسائلا :
« أهناك ما يهملها ويملاها كمدًا مستخفيا ينفث في أحشائها سمومه ؟ أتراها تحنى سرا يثقل عليها فينضب معين قوتها ويفل من مقاومتها ؟ » .

فغضت « بدرية » بصرها ، على حين تضرّج وجهها المتعب وهى تجيب :

« لست أدرى ياسيدى . ولكنى أستحلفك أن تبذل أقصى

الجهد في درء المرض عنها، وأنا على أتم استعداد لخدمتها لا أتهاون
ولا أعصى لك أمرا .

وَأَسْتَشِرَّت العلة، وأشرفت «ديانا» على الهلاك . تمضى النهار
في غيبوبة ، حتى إذا أسبل الليل سدوله ارتفعت حرارتها وثار
أعصابها فيكثر تقلبها يمنة ويسرة وتهذى بكلمات مبهمه بالعربية
تارة وبالفرنسية تارة أخرى . وأضحى «بدرية» تلازمها لا تفارقها
إلا إذا تسلمت «أم فلفل» مكانها . فكانتا تحاولان جاهدتين تبين
لفظ مما ينفلت من بين شففتها القرمزيتين .

وفاجأت «أم فلفل» «بدرية» ذات صباح بقولها :
«لقد سمعتها تنادى الشيخ «عبد الله» . ترى ماذا تريد منه ؟» .
فنبسمت «بدرية» وأجابت وهي تحاول مراوغة نظرات
المرأة النافذة :

«إذن سأناديه حالا . فربما ماتت المرأة المسكينه قبل أن
توضح له بلغتها من أخبار أهلها شيئا .
وانفنتل تركض من الحجرة .

ولكنّ الشيخ «عبد الله» أبى الذهاب إلى «ديانا» . وتردد
زمنًا وهو يجادل زوجه ، ثم لان أمام إلحافها وقام معها .
وجد «ديانا» في غيبوبة كعادتها يكاد يجزم الناظر

إليها بموتها ، لولا رأسها تضرب به المخدّة بغنة ثم تسكن سكونا
شاملا .

وقف الشيخ « عبد الله » يتأقلمها في صمت لا تخلج في وجهه
عضلة ولا تتم قسماته الرزينة الصافية عن شعور . وركعت
« بدرية » إلى جانب الفراش تهمس تكرارا في أذن « ديانا » :

« ها هو ذا الشيخ « عبد الله » ! ها هو ذا الشيخ « عبد الله » !
الشيخ « عبد الله » ... « عبد الله » ... « عبد الله » !

فاختلج جفنا المريضة ثم سكتا . ولا شيء غير ذلك . فأعادت
« بدرية » المحاولة ، فزفرت « ديانا » بحرقة مجاوبة وعيناها مغلقتان .
فتشجعت « بدرية » وكزرت ترديد الأسم تسكبه في أذنيها
هامسة بحنان :

« عبد الله ... عبد الله ... عبد الله » .

فتهدت « ديانا » وسالت دموعها ساخنة من تحت جفنيها
المطبقين . وتدفق سيلها . وكأنما أوجعت حرارته خديها
وألهبتهما إذ فتحت عينيها بعد لأي متأوّهة تنظر حولها في ذهول
ساهرة . ثم تلوّنت نظراتها شيئا فشيئا بالانتباه واليقظة ، واتسعت
حدقتها وقد تشبثنا بوجه الشيخ « عبد الله » لاحتيدان عنه .
ورفعت يدها بجهد تلمس ثوبه كأنما ليتأكد عندها وجوده

وثباته وعدم تلاشييه كما يفعل في أحلامها ويتركها تتحرق
بحمى الوجد.

فدفعت « بدرية » زوجها تقربه من فراش المريضة التي
تلاحقت أنفاسها ، وحاولت النهوض ، فانبثق العرق باردا يتصبب
من جبهتها ، وارتمت على ظهرها ثانية وشفتهاا تتمتان بأشياء كثيرة
بكاء ، قد تكون ابتهاالا للحبيب الذي هو يته فجافها ، أو دعاء
للرب الذي عرفته فجابها . وانهمرت دموعها وشرقت بها وهي
تحاول الابتسام خلالها ، فدفنت رأسها في المخدة ، واختلج بدنها
مهتزا بنحيب قاس مرير .

وتركوها تبكي حتى هدأت ، فسحب الشيخ « عبد الله » مقعدا
جلس عليه ، وبصره إلى الأرض لم يرفعه ، حتى عندما همست
بصوت مرتعش :

« عبد الله ... عبد الله ... »

فخني رأسه ، وأسرعت حبات سبخته بعضها وراء بعض .

وتكرر نداؤها : « عبد الله ... عبد الله ... »

فقطب جبينه ، وعض على شفته السفلى في إحراج وحيرة .

ثم أردفت بضعف تلهث وعيناها مغلقتان :

« يدك ! يدك ! »

فتردد ينظر حوله وقد ضاق بموقفه . فنجذبت « بدرية »
يده ووضعتها بين كفي المريضة التي أطبقت عليهما باهفة ،
وأراحت خدها المحموم فوقها وهي تتهدد بارتياح من أعماقها
وتبتسم ، ثم نقلتها تحت خدها الآخر . ثم وضعها على جبهتها
الملتهبة ، ثم على رقبها النابضة ، ثم فوق عينها المتعبتين . وأخيرا
ضغطت بشفتيها عليها ترطبهما . واختاست قبلة أو اثنتين من
برد تلك اليد التي تنسبت بها بكلتا يديها كأنما تخشى أن تفلت منها .
وراحت تشمها وتمسح بها على وجهها مرارا وتكرارا وتقبلها
على ظهرها وتقبلها ثانية .

فاستغاثت عينا الشيخ « عبد الله » بعيني زوجه . فأجابته
أن تَحْمَلْ ، في حين أسرعته هي إليه وجثمت بقرب مقعده .
فوضع يده الخالية على كتفها بحب وحنان وصبر على مضض
من أجلها .

ومرت الدقائق تباعا حتى تمت ساعة وهما على حالهما . ثم
انكسرت حدة الحمى ، وهدأت «ديانا» وانتظمت نفسها ، واسترخت
قسماتها المتقلصة وأعصابها المتوترة ، وأغمضت عينها وكفه تحت
خدها . فانتظر الشيخ وزوجه حتى عمق نومها واستغرقت في سبات
هادئ ، ثم انسجبا ناركيبها في رعاية «أم فلعل» التي تسهر عليها ليلا .

وفي غد عاذاها معا - واليوم الذي تلاه - ثم تعود
الشيخ « عبد الله » أن يمر على « ديانا » بعد ذلك آخر كل
نهار قبل رجوعه إلى منزله . وتحسنت صحتها باطراد، وزال
عنها الخطر .

وقالت له يوما بحزن وهي ترمق ذراعيها النحيفتين وقد برزت
عروقهما، وترهل لهما :
« انظر كيف صرْتُ وأصبحت ؟ » .

فتشبث بصره بالخصيرة ذات النقوش الخضر كأنما
هي أهم شيء في الوجود يجب دراسته والفرس فيه بإمعان ،
وأجابها :

« أصبحت على أحسن حال بإذن الله . فالمرض طهارة
« الدنيا ، تصلى ناره الجسد فيطهر ويشف ، وتصقل الروح
فتصفو وتسمو » .

- « ولكني سأموت ! » .

- « لكل أجل كتاب . لا تأسى . ربنا موجود ! » .

- « ربنا موجود ! ربك أنت يا « عبد الله » ! هنيئا لك به !

ولكني أنا ... أنا الضالة التائهة في بيداء الحياة وخضم الرذيلة !

أنا التي لا رب لي ! ألميلاتي نصيب من تفكيره واهتمامه ؟ »

فتمتم : « كلنا عباده . ورحمته وسعت السموات والأرض » .
فضربت «ديانا» صدرها بقبضتها في انفعال مسائلة بإلحاح :
«ولكن أنا ... أنا ! أتممه حياتي البخسة النافهة ؟ أترانى
وقد اقررت كل معصية وارتكبت كل خطيئة أطمع بعدُ في
تساعحه وغفرانه ؟» .

فرفع الشيخ « عبد الله » بصره نحو السماء قائلاً :
« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا
من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو
الغفور الرحيم » .

فهفت «ديانا» بصوت مهتج ، وعيناها تمتلئان بدموع
سريعة :

« أحقا يا « عبد الله » ؟ أغفورُ ربك إلى هذا الحد ؟
أكريمُ الله إلى هذا المدى ؟ » .

فجاءها الصوت الهادئ يثلج صدرها :

« نعم . غفور ربي لا يصد تائباً صادق التوبة ! » .

فصاحت وهي تتحامل على مرفقها وصدرها يعلو ويهبط :

« إذن أشهد يا « عبد الله » ، أني تبت على يدك إلى ربك الذي

هديتني إليه ! ربك - ربي يا « عبد الله » ! » .

فرقع رأسه بدهشة يخالجه أمل :

« ربى ربك ... سيدتى ؟ » .

— « أجل ! أجل ! أيقباني ؟ أيرضى بى تحت لوائه ؟ أبيضمنى .

إلى زمرة عباده يشفى قلبى ويهدئى روحى ويملاً نفسى بنوره ؟ » .

فقال وهو يهز رأسه إيجاباً :

« والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللهَ

فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوبَ إلا اللهُ، ولم يُصروا على

ما فعلوا وهم يعلمون » .

وتعلقت عيناه - لأقول مرة منذ عرفها - بعينها ينظر إليها

بحدة فى صمت مستشففاً دخيلتها . ثم سأها بصراحة صارمة :

« أعن عقيدة أم عن غرض تودين اعتناق دين الحق ؟ »

وقبل أن تفتح فمها لتجيب ، رفع يده محذراً وهو يقول :

« إن كان عن عقيدة واقتناع فأهلا بك أختا فى الدين . وأما

والله إن كان عن غرض لم تفصحى عنه ... » . وآ كفه وجهه وأربدت :

« فبئس ما انتويت . فإن الله غنى عن أمثالك الذين يمنون عليه

يا سلاهم بين أمم من الناس يدخلون فى دينه أفواجا منشرحى

الصدور طائعين مختارين . فينزل على قلوبهم السكينة التى تتطلعين

إليها ويضع عنهم أوزارهم كما تطمعين ! »

قطّأت في انكسار ، وقالت بصوت ذليل :

« بل عن عقيدة والله أهفو إلى الدخول في مملكة الله ، في
الإسلام - دينك يا « عبد الله » دينك الرحب الواسع الذي يحدث
العقل والوجدان ! دين « الله » الغفور الرحيم ! والسميع المجيب
كذلك . عن تجربة عرفت هذا . فقد ناديته واليأس المرير يهصرني
هصرا وجأرت ضارعة إليه والظلام الدامس يحيط بي مطبقا عليّ .
وكنت وحيدة أتخط . تحتقرني أنت وأمقت أنا نفسي . وكنت
صادقة في ابتهالي ، جادة في بحثي عن « الله » الذي يتحدث كل من
حولى عنه . يتناظى قلبي ظمأ للارتواء بمعرفته والاحتماء بظله .
قلبي ربك يا « عبد الله » ندائي . وربّ رأسي مطمئنا . فاستقر
عقلي واستندت تفكيكه . وأخذ بيدي يخرجني من بحر الضلالة
المتلاطم ويوصلني إلى بر الأمان . وأظهر قبول توبتي بفتح أبواب
الرزق الشريف أمامي . فشكرت واعتصمت . واليوم في مرضى
وقد قرب مني أكثر وأكثر ، وأغرقني في فيض كرمه وغفرانه ،
وأحاطني بقلوب تحبني صادقة وتعطف عليّ مخلصة ، أريدأن أثبت
شكري له وأنضم إلى زمرة القلوب الحبيبة النقية نعيش معا
مستظلين بظله الوارف . فلا تقفل باب الأمل في وجهي
« يا عبد الله » ! لا تطردني من جنة الاستقرار الروحي التي تلوح



فطأ طأت بانكسار ، وقالت بصوت ذليل : بل عن عقيدة والله أهنو إلى الدخول في مملكة الله ...

أمام ناظري - لا ... »

فقاطعها قائلاً :

« أستغفر الله العزيز الحكيم . من أنا حتى أفعل هذا ؟ إن
مملكة الله دون أبواب ، يدخلها خاشعاً من كرمه الله وأنعم
عليه بهداه . . »

وتهلل وجهه لكلامها ، وضاه الفرح بنور سماوى ، وقد
وقف رافعا عينيه وكفيه نحو السماء يتمم متهدج الصوت تأثراً :
« إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهdy من يشاء . »

وعقد لها منذ ذلك اليوم حلقات لدروس منظمة يلقنها فيها
تعاليم الدين الحنيف ، وضخى من أجلها بأوقات راحته . فكان
ما يرجع من الأزهر الشريف ويبدل ثيابه ويتناول طعامه حتى
يسرع إلى مسكنها فيجلس إليها تحيط به زوجته وبعض نساء الجيرة
يستمعن إليه وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم فى الهدى والتوبة
خاصة وفى الصفات التى تقرب العبد إلى ربه عامة ، مظهر الحكمة
والموعظة بالعربية مرة وبالفرنسية مرة أخرى ، إذا ما استعصى
فهم بعض الدقائق على «ديانا» . ثم يعرج على أصول الصلاة
يشير إلى الأخطاء الشائعة عنها مبينا الصواب . وكثيراً ما صلى
بالنساء جماعة إذا امتد الدرس وشاق حتى تجب صلاة المغرب

أو العشاء وهنّ ما زلن مجتمعات . فكانت «ديانا» تجلس في فراشها معتدلة في انتباه تلاحظهنّ ، وقد مالت إلى الأمام لهنيّ ، لثلا نفوتها حركة أو لفته . وفي ذات يوم وكانت قد استردّت قواها شيئا استأذنت الشيخ «عبد الله» في الصلاة معهنّ فأذن لها . فاتخذت مكانا في آخر الصف وراء النساء جميعا تقلد حركاتهنّ ، تقوم حين يقمن وتسجد حين يسجدن . ومن يومها لم تفقها صلاة - صلاة صامته تناجي فيها العيون التي تفتحت رها ، وييكى فيها القلب الذي استيقظ متلويّا من الندم ويسكب توبته دموعا سخينة . وشيئا فشيئا ، على مرّ الأيام ، تعلت ألفاظ التكبير والتعظيم فتردد : «الله أكبر! الله أعظم!» في الركوع والسجود والقيام . ثم حفظت جملا ناقصة ثم سورا قصيرة ، ثم سارت في الطريق ...

وكان شهر رمضان على الأبواب . فلها أهلّ أول يوم منه وملاّ السكون بسناه ، اصطحبها الشيخ «عبد الله» وزوجه إلى حيث شهرت إسلامها رسميا وأثبتت دخولها في زمرة المؤمنين ، وسمّت نفسها «فاطمة» . وطلبت «ديانا» من الشيخ «عبد الله» وهم في طريق العودة أن يعرج بهم على السوق واشترت خروفا سمينا دفعت ثمنه من آخر قرش ادخرته قبل مرضها الطويل ،

وهي تقول باسمه بالعربية:

«ربنا كريم . ربنا رزاق !»

ثم استأجروا عربة يجرها بغل عتيق ويقودها شاب مرح خفيف ، وأناموا الحروف فوقها على جنبه ، وأمسكت «ديانا» برأسه وضغطت «بدرية» على مخذبه وقلوا راجعين .

وعلى عتبة الدار رفعت «بدرية» برقعها عن وجهها وأطلقت أغرودة لفت نشوى أزقة الحى ومنحنياته . جأوبتها «أم فلفل» من داخل الفناء وهي جالسة إلى طست الغسيل . فأطلت «أم شربات» من بيتها تحايهن ببعض الأغاريد قبل أن تعرف ما الخبر . وهرع الناس نساء ورجالا وأطفالا إلى مسكن «ديانا» مهرولين منشرحين يزاحم بعضهم بعضا ، وضحكاتهم تسابقهم ، وأصوات استبشارهم تلاحقهم . كأنما تروى الأغاريد لهم نبأ بهيجا . كالحديث بالطبول عند بعض القوم .

وبلغهم خبر إسلام «ديانا» أو «فاطمة» وانطلق بينهم انطلاق النار في الهشيم . فصاح الرجال يكبرون الله مهللين تشق أصواتهم عنان السماء ، وغزدت النساء بعصية وحماس حتى جفت حناجرهن ، ولم يعرف الأطفال كيف يصرفون مشاعرهم ، فراحوا يقفزون ويقفزون . وانشقت الأرض عن فرقة

موسيقية جواله قوامها زمار وطبال . فوقف الحوذى الشاب فوق مركبته وقد لف وسطه بوشاحه القطنى ، واختطف طربوش أحدهم ووضع على رأسه مائلا وزره يترجح إلى الأمام ، وراح يرقص . واشترك المهنتون جميعا فى التصفيق على وتيرة واحدة . ترقص العابد وتنسى الوقور وقاره .

وبعد صلاة العصر نحر الخروف ووزع لحمه على الجيران المعوزين . وأفطرت « ديانا » أو « فاطمة » مع عائلة الشيخ « عبد الله » فى حجرتهم ، وساد بينهم السلام .

أسلمت ، « ديانا » . . . أسلمت وتصوّفت . فكعادتها حيال كل عمل جديد تقبل عليه اندفعت تنهل من الدين بجميع جوارحها ، وقد امتزج عقلها وقلبا وتكاتفا واندجت عواطفها وأفكارها وتوحدت . وكلما تعمقت فى تعاليمه تراءى لها فقرها إليه عملاقا فتسكفى مستزيدة ، ويحتد طلبها وراءه .

وكانت « بدرية » حاهلا على وشك الوضع . فخاكت « ديانا » لها واملودها المنتظر ثيابا كثيرة ، وغزلت سترات صوفية صغيرة طرزت حواشها بورود حمر وبيض ، ووضف فقرحت « بدرية » بتلك الملابس أيما فرح ، وتاهت بها على جاراتها .

وجاءها المخاض ذات صباح والبيت خال إلا منها وابنها . أمه

الرجال فكانوا قد ذهبوا ، كل إلى عمله . فأرسلت « عمر » الصغير وراء « ديانا » التي خرجت معه لساعتها فلمحتها « أم شربات » من نافذة بيتها تهزول مسرعة في الشارع . فأدلت بنفسها حتى نصفها تسألها عما يحدثها على العجلة . فما وقفت على السبب حتى نادى بدورها جاراتها « أم فلفل » و « أم سعيدة » و « أم برلنته » و « الحاجة عيوشة » وأسرعن جميعا في ملح البصر يلحقن « ديانا » في منزل « بدرية » وامتلات الحجره بهن واقترشن الحصير جماعات تنوسطهن « الحاجة عيوشة » وأمامها صينية فوقها معدات القهوة ، وقد جلست مطرقة تلاحظ بتلذذ « التنكة » المعمرة وهي تفور بهوادة ويفوح منها عبير جميل يشرح الصدور .

واستلقت « بدرية » على فراشها أمامهن تتلوى . وأمسكت « ديانا » يديها مشجعة تهمس في أذنها من آن لآخر بكلمة أو ملحمة فتبتسم لها وسط آلامها . وتربعت جارة فوق المخذة تسند رأس « بدرية » بين راحتيها وتمسح العرق كلما نضحت به جبهتها وصدغها . وقرفت أخرى تدلك قدميها ، واشتغلت اثنتان بتسخين ماء كثير في أوان نحاسية كشفتا عنها أعطيتها حتى يتصاعد البخار ويملأ جو الحجره فيساعد على سرعة الوضع . . . !

ومرّ النهار وتكاثف الهواء حتى صار خانقا و « بدرية » تجاهد

مستميتة ولا فرج . ولما استقوى الألم وظهرت بوادر الوضع خرجت «ديانا» تستدعى الطبيب . فزحفت عجوز درديس زحف القدر إلى الفراش ، ومدت يدا معروقة ذات أصابع يابسة . تنحني أطرافها وتسود كجذوع شجرة عجفاء ، ولمست بدن «بدرية» تتحسس بطنها المتقلص . فصرخت «بدرية» في نوبة من نوبات الألم المنتظم الذى يطعن أحشاءها وتتجاوب ضرباته في ظهرها كطعنات الحراب ، وضمت قدميها إلى أعلى كأنما لتدراً عنها بعض العذاب . فصاحت بها العجوز تشجعها :

« ما هذا الضعف منك يا بنتي ؟ اهدئي واستقوى ... لا تخشى شيئاً . سأتحسس فقط لأرى هل يطل رأس المولود خشية أن يخنق وأنت تنلوقين هكذا يمينا وشمالا ! » .

فسكنت «بدرية» مستسلمة ، وهى تعض على شفثيها الشاحبتين . وتهافت سائر النساء يحومن حول الفراش بفضول ، تتمصص إحداهن شفثيها مواسية ، وتقص أخرى بصوت مرتفع لمن يؤذ أن يسمع دون استثناء كيف أشرفت هى على الموت من عسر وضعها ، ثم كيف أنعم الله عليها بالفرج بغته فقامت بعافية وكأنما لم تضع ولا حملت ، وتدعو لـ «بدرية» بالمثل . فتدق ثالثة

صدرها وتمضغ قطعة اللبان التي تتشددق بها بشدة وحماس لحظة ،
وتدور بعينها في أرجاء الحجرة من السقف إلى الأرض
وبالعكس في حركة بليغة معبرة ، ثم تقول بصوت مولول :
« اسكتي ... اسكتي يا أختي ! لم تر إحداكن ما رأيت أنا من
أحوال الوضع ! لا أراكن الله مما قاسيت شيئا ! » .
وتكمل مضغها وتشدقها .

وعادت « ديانا » بعد أن حادثت الطيب من « تليفون »
البقال . فوجمت لحظة على الباب ، وقد ذهب بها الظنون مذاهب
شتى . ثم اندفعت تشق لها طريقا بين النساء . فهاها أن رأته
العجوز غائصة تحت الغطاء بيديها ورأسها . فصرخت مستنكرة
وجحظت عيناها هلعا وشفقة :

« ماذا تفعلين بها أيتها المرأة ؟ اتركها ... اتركها بربك ! أيدك
القدرة تقترين منها ؟ كيف هذا ؟ ولماذا ؟ ! »

فلم تتحرك العجوز ولا رفعت رأسها . وأجابت إحدى النساء
تربت كفف « ديانا » بيد وترشف من فنجانة القهوة في يدها الأخرى :
« إنها لا تفعل إلا كل خير . فيدها كلها بركة ، لأنها امرأة
مسنة مباركة شاهدت مئات الحالات المماثلة ، ومارست مهنتها في
شرح شبابها وكسبت منها ذهابا ! » .

— «ولكن يدها القذرة ، يدها القذرة ! آه ياربى رحمتك !
كيف تتركونها تفعل بـ «بدرية» ما تشاء ؟ وكيف لم تضطروها
إلى غسل يدها على الأقل إن كان لا بد من عملها ! » .
فتكاثرت عليها النساء ، كلُّ بكلمة ورأى . فتملصت «ديانا»
من يدينهن وهى لا تزال تصرخ :
« دعونى ! دعونى أبعدها عن «بدرية» ! بربكم دعونى ! » .
فتصدت لها « أم فلفل » باسمة وهى تقول :
« اعقلى يا «فاطمة» يا بنتى ! هذه عادتنا ، ونحن جميعا
متعودات تلك الطرق » .
ثم مالت على أذن «ديانا» تهمس : «وعلاوة على ذلك فهى عمه
زوجها ، أقرب لها منك ! » .
فسكتت «ديانا» وانفلتت راكضة من الحجرة تلتفت
حولها منادية :
« أين الشيخ «عبد الله» ! أين الشيخ «عبد الله» ! أغيثونى به !
«عمر» ! «عمر» ! أين هذا الغلام يا إلهى ! «عمر» ! «عمر» !
ها أنت ذا ! ابحث عن أهلك وناده حالا ! أسرع ! » .
فانبرى الفتى قضا متوثبا هابطا إلى الشارع يطوى الدرجات
طيا ، وراح يعدو نحو المسجد الحسينى .

وجاء الشيخ « عبدالله » ملهوفاً . فصاحت به « ديانا » من
أعلى السلم :

« بدرية تضع والنساء حولها . اذهب حالا أرجوك وأت بالطيب
فهو على علم بحالتها . . . أسرع بربك ولا تضيع الوقت سدى ! » .
أجابها من أسفل السلم ، وقد شخب وجهه الوسيم الغض :
« سمعا وطاعة يا « فاطمة » ، ولكن أرجوك أن تمكثي بجانبها
ولا تتركها لحظة لهاته النساء ! » ثم استدار خارجا وهو يقول
لنفسه : « زوجتي . . . حبيبتى ! » .

وعاد بالطيب . وعلى باب الحجر المغلقة النوافذ المتكاثفة
الهواء التي تموج بالنساء ، تراجع الطيب متأثفا وصاح :
« لتخرجن جميعا من هنا ! » .

فانسلن واحدة تلو الأخرى وهو يتبعهن بصره ، حتى رأى
« ديانا » فابتسم لها حبيبا إذ كان يمر بها من يوم مرضها ، وقال :
« أما أنت فابقى لتساعديني ! » وشمر عن ساعديه ، وبدأ العمل .
وجثمت « ديانا » على ركبتيها إلى جانب الفراش لتلتقي الطفل ،
وتناول الطيب ما يطلب من أغذية وماء ساخن وما إلى ذلك .
ومرّ الوقت مثاقلا ، ساعة وأخرى ، قاست فيهما « بدرية »
كبيرا حتى شقت المرخة الحدية المنتظرة أجواء الحجر ، فتنفس الجميع

الصعداء، وارتمت المرأة المسكينة منهوكة القوى يتصعب بدنها عرقاً بارداً.
وتلقت «ديانا» كتلة اللحم الملوية في أحضانها بشوق ولقت ذراعها
حولها، وأراحت رأسها بخفة فوق الرأس الصغير المبلل، ثم حلت
اللفافات تتأمل القادم الجديد - بنتا سمراء تجرى في قسماث وجهها
حلاوة ماء النبل وعدوبته، وتعكس عينها نصف المغلقة لون زرعه
الأخضر. فضمتها «ديانا» إليها بحب طاع، وهمست في شعرها الملبد:
«يا حبيبة قلبي، يا ابنتي!».

ومرّ يوم قلق، وثمان، ارتفعت فيهما حرارة «بدرية» وسرت
ثم اشتطت في ارتفاعها. وساءت حالتها بسرعة عجيبة كأنما هي
قطعة من صخر تتدحرج من عل متدهورة في اندفاع إلى هوة
ساحقة. وبذلت «ديانا» من أجالها المستحيل، وقد أصبح واضحاً
أنها فريسة لحمى النفس اللعينة. فكانت «ديانا» تفرك يديها
لحفة وإشفاقاً وأسنانها تصرّ، وهي تكظم غيظها من النساء
يطمئنّتها قائلات:

«هو اللبن يا بنتي - اللبن نعمة الله على الطفل - الذي يسبب
ارتفاع الحرارة هكذا. اهدئي وانزكيها لله يتولى أمرها! سليمة
ياذن الله! سليمة والنبي!».

فكانت «ديانا» تنظر إليهنّ في صمت حائق، وتمسك لسانها

عن إجابتهن بصرامة . وجاءت بالطيب ثانية . فلما رفع رأسه عن « بدرية » يبطء يهزها بأسف - وقد قطب ما بين حاجبيه وزم شفقيه - فهمت « ديانا » من نظراته الواجمة كل شيء . فهوت بيدها على فمها تكتم صرخة ملئعة ، وارتمت على أريكة بلدية في ركن جاحظة العين ، راجفة القلب . ثم دفنت رأسها في ذراعها ، واهتز بدنها بنحيب قاس بلا دموع . ثم ألقّت بنفسها فوق « بدرية » الغائبة عن الوجود تصيح بصوت باك موجهة كلامها إلى الطيب :

« أواه ياسيدى ! هذا ما كنت أخشاه ! هذا ما كنت أرهبه يوم رأيت المرأة تلمسها بيدها القذرة الملوثة ! أواه يا « بدرية » ! أواه يا حبيبتي ! » .

واشتد الخضر ، وحام الملك ذو المنجل حول البيت الحزين . وباتت « بدرية » تهرف وتهذى وعيناها مفتوحتان تنادى زوجها وتتوسل إلى الحاضرين أن يجيئوا به إليها ، وهو ملازمها كل الوقت ، ممسك بيديها يضغظهما بين كفيه ويقبلهما متمتا :

« هأنذا يا « بدرية » إلى جانبك لا أفارقك لحظة . انظرى - انظرى إلى يا حبيبتي ! » .

فلا تلتفت ، ولا تسمع ، ولا ترى .

وفي هدأة الليل قبل أذان الفجر بقليل اعتدلت « بدرية »

جالسة . وكانت «ديانا» إلى جانبها والطفلة في أحضانها نائمة
تهدهدها وتقطر في فمها قطرات من مغلي الينسون .

وكان الشيخ «عبد الله» قد غابه التعب والسهرة ، فأراح رأسه
وهو جالس القرفصاء على محذة زوجه جنباً إلى جنب مع رأسها ونام .
فلما رأت «ديانا» أن «بدرية» متنبهة ، وضعت الطفلة بسرعة
في الفراش وهرعت إليها . فابتسمت لها «بدرية» بحمية ، وأخذت
يدها بين راحتيها المحمومتين :

«أى «ديانا» ... «فاطمة» يا أختى ؛ أغدقت على ...
كثيرا ... دائماً ... ولكنى ... أنا ... أنا ليس لدى ما أعطيه لك ...
رداً لجميلك ... سواه ... هو ... هو ... هو ! » .

ووضعت يدها على الرأس المعمم المتعب إلى جانبها . ثم أردفت
بسرعة كأنما تخشى أن ينقطع عنها التيار الخفي الذي يمدّها بالقوة :
«خذي ... خذي يا «ديانا» . هو ... هو لك ... هنيئاً ...
لك به ... وهنيئاً له ... بك يا «فاطمة» ! أباركك ... أباركك ! » .
وازدردت ريقها بصعوبة وهي تلهث : «وابنتى ... ابنتى
يا «فاطمة» ! خذيها ... أيضاً - ربّها لى هي وابنتى ... يا حبيبتى ! » .
وتهدج صوتها وخفت ، وتلاحقت أنفاسها لاهثة ،
وأغمضت عينيها . فاستيقظ الشيخ «عبد الله» ليصر زوجه

على هذه الحال . فسقط فؤاده في جوفه ، وجف حلقه ،
وارتمى فوقها يربت خديها لينبها ، ويمسح على شعرها بجنان ،
ويناديا بأرق الأسماء .

فتحت « بدرية » عينها بجهد ، وراحت تنظر أمامها ذاهلة .
ثم ارتدت إليها فهمها ، وتنهت بجأة . فأخذت بيد زوجها الكبيرة
السمراء تقربها من يد « ديانا » الرخصة البيضاء حتى تماستا ثم تماسكتا
فوق بدنها . وقالت تسرق دقائق أخرى من الزمن :

« خذها - خذها يا « عبد الله » ... « فاطمة » ! خذها ... فهي ...
تحبك ... كنت أعلم ... دائما ... أعرف ... منذ ... أول ... يوم !
لا ... لا تترك ابنتي وابني دون ... أم ! « عبد الله » أطعني ...
أباركك . أباركك ! » .

ومن فوق الجسد المسجى التقت أعينهما في خشوع ورهبة
وتشبثت ، كما التقت أيديهما من قبل . وقد خفت وقدة النار
المشوبة ، وتصافت روحاهما وامتزجتا يصقلهما الحزن المشترك .
فسقطا على فراش « بدرية » يعولان ، وأيديهما بعد متشابكة ،
يسجبان الغطاء على الوجه الساكن .

وخيم الظلام

وساد الصمت . صمت عميق مطلق يفيض أسى وذلا ، صمت
بليغ لو جسّم لتمثل عبدا رقيقا ناكس الرأس ، مقوس الظهر .
في هذا الصمت الذليل الحقيير تسالت يد « أثنان » تتحسس
موضع الصفعة على خنثها البرنزي ، ذى الخال النفاحم تحت
عينها اليسرى .

أما الحاضرون جميعا فقد حبسوا أنفاسهم وتطلعوا مبهوتين ،
وتبدى على صفحات الوجوه ما جاش فى الصدور من عواطف
ومشاعر متباينة : دهشة فى وجوم ، حيرة فى إحراج ، شفقة
فى استنكار .

شبهت « أثنان » شهقة خرساء من هول المفاجأة ، وغاض
الدم من وجهها الذى غشيه اصفرار شديد ، ونضح جبينها
قطرات كبارا من العرق البارد ترقرقت لحظة ، ثم سالت على
صدغيها خطوطا رفيعة كالدموع ؛ وجف حلقها ، والتصق به
لسانها كأنما علّ إليه بصمغ ، وسرت برودة فى كيانها كله

أحست لها برعشة هزتها هذا ، وأشلت ذراعها إلى جانبيها ،
وسمرت قدميها .

تحولت الأنظار من « أشجان » إلى من اعتدى عليها ، كان
واقفاً قبالتها ينظر إليها شزرا ، وهي ترتجف كغصن في إعصار
خريف ، ثم بصق بصفة تحقير تطاير رذاذها ، فأصاب
قدميها الحافيتين . وبكل تؤدة النفع بعباءته الواسعة المغزولة من
وبر الجمل الأملس ، وألقى بطرفها فوق كتفه ، ثم استدار
ليواجه القوم ...

إنه من أترياء الوجه القبلي : صعيدي ، وغنيّ ... صفتان
تفسران جو الاعتداد والأنفة الذي يحيط به كالهالة .

وهو في مقتبل العمر ، وهبه الله بسطة في الجسم ، مع حسن
تكوين : فارع الطول في استقامة ، مرفوع الرأس في أنفة ،
عريض المنكبين في غير ثقل ، ضامر الخصر ، فكأنه فارس
من فرسان قصص البطولة التي يتغنى بها عازفو الربابة ، أو تمثال
حشر بين الناس نموذجاً للرجل كما يجب أن يكون .

وكان وجهه في لون النحاس المصهور مشرباً بحمرة قائمة .
أما قسماته فكأنما نحتت بدقة وتفنن ، عينان عميقتا الغور ، حالكتنا
السواد ، شديدا البريق . وأنف مستقيم أشم ، وفم وإن اكنزت

شفته شديدا فهو يبرز صفتين متناقضتين : الصرامة القاسية ، والطيبة المتناهية ، تنطق بهما الخطوط الدقيقة المتفرعة على جانبي الفم الذى ينفرج عن ضحكة عريضة ساذجة تنضح دعة ومرحا إذا انبسطت أسارير الوجه ، أما إذا اكفهرت فإن الفم السخى يخفى ليحل محله شق رفيع صارم .

لم تطرف للرجل عين بعد أن رنت الصفعة التى صافح بها خد الراقصة « أشجان » وسط قاعة الرقص . وقف كالطود الأشم ، لا ينمّ وجهه الصخرى الشديد السمرة عن ندم على تهوّر أو اندفاع . ثم أزاح عباءته الصوفية عن كتفيه وألقاها على جسد « أشجان » العارى وهو يرمقها بنظرات تقدح لهبا ارتجفت لها المرأة وتداعت رعبا ، وضمت أطراف العباءة حولها فى إحكام ، وانزوت وراء « حمدان » وهو يستدير ليغادر القاعة وتبعته مطأطئة الرأس وهى تجر أذيالها بين أرجلها كالكلب المضروب .

° ° °

كانت الليلة ليلة عيد الميلاد ، وقد أمضى « حمدان » النهار كله مع « ماجور سيدنى » يتفاوضان فى صفقة ترمى إلى توريد كمية هائلة من الدقيق قبل عيد رأس السنة ، وقد اعتذر « حمدان » بضيق الوقت ، وأبدى استعدادة لتوريد الكمية قحاً كالمعتاد ،

ولكن « الماجور سيدنى » كان مصمما ، ومن هنا كان الاختلاف الذى اضطر « الماجور » معه إلى أن يصحب صديقه التاجر الصعدي إلى النادى ليلاً لئتما الاتفاق ، أو يهتديا إلى حل وسط يرتضيانه معا .

وكان هذا النادى مقاما فى عاتمة راسية على شاطئ الجزيرة ، خاصا بحفنة من كبار الضباط الإنجليز . وقد اختاروا اثنين من جنود المراسلة السنغاليين العمالقة ليقوما على خدمتهم . وكانت إدارة النادى مؤلفة من ثلاثة من أكثر الأعضاء عبثا ، وأخصبهم خيالا فى التفنن فى ضروب التسلية السافرة . فنظموا برنامجا شائقا على حد تعبيرهم بمناسبة ليلة عيد الميلاد فى تلك السنة من سنى الحرب الأخيرة .

وتقاطر الأعضاء على النادى مبكرين ، وقد حرصوا على تمضية السهرة كلها به ، واحتلوا أماكن قريبة من حلبة الرقص التى زينت بأبداع زينة ، تمثل بهو قصر شرقى ، تتمايل على جانبيه نخيلات باسقات كغوان راقصات على أنغام موسيقى خيالية ، وتتوسطه فؤارة تنبثق فيها المياه من أفواه جنيات للبحر أربع يجثمن فوق أركانها ، وتحيط بها أصص الزهر والورود الفواحة ، وبُثتْ فى أنحاء البهو أنوار أخفتت أضواؤها عمدا لتضفي جوا

شاعريا يزيد من شرقية الحفلة ، ويطلق العقول من قيودها تسبح
في أجواء الخيال وتمرح في بيداء الأحلام ، ونثرت الوسائد
والحواشي المزركشة على الأرض في الأركان المظلمة تحت الخنازل
المصنوعة من جبال الورد المتشابك ، وجرت الخمر أنهارا يصبها
الأسودان في كتوس القوم من أباريق فضية مجلوبة من
« خان الخليلي » مصنوعة على طراز الأباريق التي تعد ليصب منها
ماء الوضوء ...

وبينما الحاضرون في لهوهم وشربهم قرعت دفوف خفية
إيذانا بيده البرنامج قرعا متواصلا مثيرا يشبع الدفء في الأوصال
ويبعث الرجفة فيها فيحرك من كوامن النفس ورغائبها . ثم انطلق
من بينها عاليا صوت ناي رقيق المناجاة كههممة عاشق شك ، وعلى
أثره دلفت طائفة من الراقصات في غلائل شفاة إلى وسط القاعة
فعلت أصوات الاستحسان ، وارتج المكان بعاصفة من التصفيق
والتهلل ، انفرجت لها شفاه الراقصات المصبوغة رضا وسرورا .
فأقبلان على الحاضرين يتمايلن على صدورهم ، ويلقيين برء وسهن على
أكتافهم ، ويطلقن الضحكات .

ومرّ الوقت ، وعبق الجوّ بسحاب الدخان ينفثها الرجال
من مباسم التراجيل العاجية ، وتكاثف الهواء بالأنفاس اللاهثة

المشبعة بريح الخمر والعرق . وكان الرجل إذا أعجمته راقصة
أخرجها من بين زميلاتها وجزها إلى ركنه جزا كرجل
الكهوف . وما انتصف الليل حتى دارت الرؤوس ، وأبرزت
الغرائز أظفارها غير مقلبة ، وتوَّج الشيطان ملكا تلك الليلة ،
وتهاك المحفلون على إرضائه .

فهمهم « حمدان » يستعيد بالله من شياطين الإنس والجن ،
وما لبث أن مال على « الماجور سيدنى » يستأذن في الانصراف ،
إذ أنه أمضى العقد معه ، وليس له في هذا الميدان مجال ، ويمم
وجهه شطر الباب .

وبينا هو يقدر مواقع خطاه ، حذَّار التعثر في طريقه ، دقت
الدفوف بغتة دقا عاليا كأنما تلفت الأنظار إلى جزء من البرنامج
ذى شأن ، فلم يقف « حمدان » ، ولكنه التفت بدافع من الفضول ،
فرأى الأضواء تتضاءل وألفي السنغاليين العملاقين يدخلان قاعة
الحفلة متجردين إلا قليلا وقد احمرت أعينهما من الشراب ،
يحملان صينية فضية كبيرة مغطاة بالورود الخمر ، ترقد عليها
راقصة عارية ...

كانت تنظر حوالها إلى الحاضرين من علياء ، كأميرة الشمس
في مدينة وثنية ، تشرق بمحياها على رعاياها وهم يتحرقون شوقا

ووجدنا . ولما توسط العبدان السنغاليان القاعة ، أنزلا الصينية ،
وبدأت الراقصة تتلوى كأفعى أحست بالدفء . نهضت ببطء
تحثها نغمات رفاق يطلقها الناي هاهنا نشوان ، وقد بسطت
ذراعها أمامها ، وحنث رأسها ، وأسدتلت جدائل شعرها الفاحم
الغزير تحجب وجهها وصدرها عن الأعين المتطلعة للهفوى . ثم
قرعت الطبول ، وعلت ضربانها متداركات تثير الأعصاب ،
فانتفضت الراقصة تشوى ، وقفزت كالنمرة واقفة ، وانعكست
عليها الأضواء الناصلة ، فظهرت عارية كتمثال نحاسى تأتق صانعه
فى إبداع علت له همهمة الإعجاب وتصايح الاستحسان . ثم ألفت
برأسها إلى الخلف فانساب شعرها على الجانبين ، وانقشع كسحابة
عن وجه بيضى الشكل دقيق القسمات ، تشيع فيه سمرة مشربة
بحمرة خفيفة كغلالة الحياء فى وجنات العذارى . أما عيناها
فكحولتان ، أهدابهما ثقيلة ، ونظاراتهما مسترخية كسيرة .

وما إن شرعت ترقص فى حركات مغرية مثيرة ، حتى انبرى
حمدان ، يشرع إليها بصره ، وهو مستريب بها ، تنوشه الظنون .
وظل يحدق إليها فى تفرس وتعرف ، وأخذت أوصاله ترتعد ،
ولم تسكد عينه تلاقى عيناها حتى شعر بأنها تضطرب اضطرابه
الدهشة والذعر ... فلم يبق عنده شك فى أنهاهى ... فاعتم أن وثب

عليها يمسك بجذائل شعرها ويلفها حول معصمه ، ويلطم وجهها
لطمه كان لها وقع السوط :

— يا فاجرة ... من كان يظن ؟

° ° °

خرج « حمدان » من العائمة ، وهو يجزّ الراقصة « أثنجان »
خلفه ... كانت كالحالمة ، مخدرة الأعصاب مسلوبة الإرادة ؛ ومشيا
من « الجزيرة » إلى « انبابة » والليل حالك ، والهواء قارس ،
والسكون شامل لا يقطعه إلا وقع حذاء « حمدان » ذى النعل
الغليظة على الطريق الأملس . حتى إذا وصلا إلى ذلك الجزء
من النيل حيث ترسو السفن الشراعية محملة بالقلل والجِرار
والحبوب ، صاح « حمدان » :

« عليوة » وَيك ! ... أنا « حمدان » ! ... « عليوة » وَيك ! ...

أنا « حمدان » !

فقفز « عليوة » من قاع إحدى السفن كالقط اليقظ قاتلا :

أهلا ، مرحبا بالريس ! ... أمرك سيدي !

— حل الحبال وانشر الشراع ، وزجنا في عرض البحر ،

وابق هنا في مركب ابن عمك حتى يأتيك منى نبأ .

وكان « عليوة » يعمل ، و « حمدان » يلقي أوامره ، فما

إن أعدت السفينة حتى التفت « حمدان » إلى « أشجان »
- أو « ناعسة » اسمها الأصيل - دون أن يتكلم ، ففهمت مرامه ،
وتقدّمت مرتجفة تقفز إلى داخل السفينة ، ثم قصدت إلى ركن
تبكى في ذلة ومهانة .

ولما توسطت السفينة عرض النهر المقدّس ، وقد نشرت
أشرعتها الثلاثة وامتألت بالهواء ، تنفس « حمدان » الصعداء ،
وأمسك بالأسكان ؛ وكانت الريح تصفر ، والموج حائرا
يتخبط بين الشاطئين .

ومرّت برهة ، استسلم فيها « حمدان » لأحلامه ، تعود به
« الفهقرى » سنين موصولة ، فمّرت حياته مع « ناعسة » شريطا
سيناينا... ها هما ذان في « قنا » مسقط رأسيهما ؛ صياد يتيم ناشئ ،
وظفلة مرحة تصحب أباهما المؤذن الضرير إلى الجامع كل وقت
صلاة ، ولا تنفك تقفز وتدفع قطعة من الحجارة بقدمها ، ويدها
في يد أبيها ؛ حتى إذا مارأته تهلل وجهها وبدأته بالتحية :

« صباح الخير يا « حمدان » . » أو : « مساء الخير يا « حمدان » ؛
كيف أنت والسماك اليوم ؟ » .

فكان وهو الشاب اليافع يضطرب لصوتها تخاطبه ، ويكشف
عن سلته غطاءها من القش ليربها في صمت صيد اليوم من بركات

النهر ؛ فتقول له :

« خير كثير والله ... ما أوسع رزقك يا شقي ! » .

ويجلجل ضحكها عاليا ، وتبرق عيناها فرحا بالحياة ، ثم تداعبه بأن تضرب ذراعه أو تجذبه من كم جلبابه ، فكانت خفقات قلبه تسرع دائما لمداعباتها . وكان أبوها يزجرها دائما برفق :

« كم نهيتك يا « ناعسة » يا بنتي عن طول اللسان هذا ؟ ! » .

فبتمتم « حمدان » وهو يتعثر في مشيته :

« إنها تمزح معي يا عمه ... لا ضير ! » .

وهكذا . نشأت معرفتهما مع طفولتهما ، وتطورت مع شبابهما ،

حتى ذاع جبهما في « قنا » وأصبح حديث القوم جميعا .

وعلى مرّ الأيام اشتد كلف « حمدان » بالفتاة ، وأصبح

هواه لها أكبر من أن يسهه قلبه ، فصحبها وأباها ذات يوم إلى

دارهما بعد صلاة العشاء ، واستهل حديثه يقول - كأن زواجهما

شيء مفروغ منه منذ زمن - :

« متى يكون العقد يا عمه ؟ المهر معي والحمد لله » .

وربت صدره ، حيث تمكن ثروته الصغيرة في أمان ، داخل

كيس من القماش ، يربطه إلى عنقه بحبل .

فتهلل وجه الشيخ الطيب ، وأسرعت أصابعه في عدّ حبات

السبحة طربا، وأجاب وقد انفرج فمه عن ابتسامة كبيرة :
الأمر أمرك يا حمدان ، يابني ؛ تعقد على « ناعسة » الليلة
أو غدا ، هذا شيء يضحك .

— كان بوذى الليلة والله ، لولا أن الوقت متأخر ، ومأذون
بلدتنا لا يغادر بيته بعد المغرب ، ولو دعاه العمدة . ولكن
قسما بالعلّي العظيم لأخذن امرأتى معي الليلة القادمة أية
كانت الظروف .

— ليكن ما تريد يا « حمدان » ...

وتزوجا . لم يكن له بيت ، فأخذها معه إلى قاربه ، وكان قد
أقام فوق سطحه ظلة صغيرة من الخشب يبيتان في داخلها ،
ويميضان نهارهما في بسط الشباك وإلقائها على صفحة النهر الواسعة
المباحة للساعين إلى الرزق جميعا .

لم يرزقا أطفالا ، ولكن ذلك لم يؤثر في حبهما ، على الأقل
في حبه إياها . كان سعيدا راضيا بنصيبه وبزوجته ، وكان يظنها
كذلك ، حتى بدأت تتذمر من عيشتهما البدائية ، وتظهر مللا
وفتورا في مساعدتها له ، وتشيد بما سمعته عن حظ فلانة صديقة
طفولتها مع زوجها الذي يهين لها عيشا هائنا ناعما ، وحظ ابنة
جارتهم الذي وصلها بتاجر مثر تلعب بماله لعبا . وقد تقبّض

قلب « حمدان » حينذاك لهذا الحديث الذى كان أول نذير طرق
باب هنائه وهتد عُشه .

عمل « حمدان » ما وسعه لإرضائها ؛ اصطاد الليل كله
ليضعف كسبه ، ورسا بقاربه عند « الأقصر » وغيرها من البلدان
التي يغشاها الأثرياء ، وحمل صيده بنفسه إلى الغنادق والقصور ،
ووزعه على المطابخ ، وتعلم كيف يتشبث بالثمن الذى يقدره ويعلى
صوته إذا ساومه فيه أحد ؛ وكان إذا عاد مع الغروب منهوك
القوى ألقى بالنقود فى حجر « ناعسة » ونفض كيسه أمامها ،
ثم استلقى عند قدميها ينظر إليها بعين الواله ؛ كان رضاها عنه
مُنَاه ، ودوام عيشتهما معا مَرَّماه ؛ ولكن زادت فى كبريائها ،
واستفحل الأمر ، حتى رضى - وهو الصعيديّ الأبى الغيور -
أن تصحبه فى تجواله فى المدن التي يرسوان عندها للبيع معه ،
والترويح عن النفس ، والنفرتج بالدنيا - على حدّ قولها ...
وليته لم يرض ! ...

عض « حمدان » بنان الندم ، وهو يدير السُكان بعنف فى
غيظ مكثوم ، وتهد من قلب مكثوم ...

لقد تفرجت « ناعسة » واطلعت على الدنيا ... أى دنيا ؟ ...

دنيا المال والجاه ، دنيا الترف والبزخ في الفنادق الكبرى ...
كان يدلف هو إلى المطبخ يحمل بضاعته ، في حين تتسلل هي
إلى الحديقة تحتلس النظر خلال النوافذ إلى الردهات والغرف
الداخلية الغاصة بكبار القوم من الأثرياء والسيّاح ... السيدات
يرفان في الحرير والقטיפه ، وتضوئ صدورهن ومعاصمهن بالحليّ
والجواهر ، والرجال ناعمة بشراتهم ، هامسة نبراتهم ، لهم منظر
وجيه ، وجاذبية تحلابة ، جعلت عين « ناعسة » تتعلق بهم في
إعجاب ، وهم فوق ذلك يتسمون في رقة ، ويحاربون من
لا تدانها حسنا !

وجفأة اختفت ... اختفت اختفاء غامضا من المدينة ، بل من
الصعيد كله ، بل من حياته ! ... بحث عنها « حمدان » في كل مكان ،
وذرع عرض النهر شمالا وجنوبا ، وسأل عنها في كل قرية وكل
مدينة ، صغرت أو كبرت ، قربت أو بعدت . وتحدث إلى كل
إنسان لقيه في شأنها ، ودقق في سؤاله عنها ، واستحلفه بكل غال ،
حتى وصمه الناس بالجنون .

ومرت السنون لم ينسها ، ولكنه أخفى ذكراها في ركن
قصي من قلبه ، ورجع إلى عقله ، وجمع شجاعته وشتات نفسه ،
وسأل الله الصبر والقوة ، واستأنف حياته وسعيه ... أدلى بدلوه

في كل عمل وكل تجارة ، ووضع قلبه فيما زاوله ، فنجح نجاحا باهرا - لم تستهوه امرأة بعد « ناعسة » ، فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذي يفتح فؤاده مرة واحدة ، ويشعل جوى ووجدا ، حتى إذا ما قدر لناره أن تحب ، احترق وأصبح يحمل مكان القلب حفنة من الرماد . وربما كان ذلك وحده سرّ ثروته التي تزايدت وتضاعفت في سني الحرب ، حتى أصبح وهو بعد لم يتخط العقد الثالث من عمره مرموق المكانة بين تجار الحبوب . لم يسمع عنها كلمة في كل أسفاره ، طوال هذه السنين ، حتى لقبها هذه الليلة الليلية ، على تلك الحال الشنعاء ، في نادى الضباط الإنجليز .

° ° °

انكشفت « ناعسة » في ركن صغير من السفينة الشراعية مطرقة ، موصولة نظراتها بالأرض ، وتقدم الليل ، و « حمدان » في سفره المجّد ، لم يفتح حديثا مع « ناعسة » ولم يناقشها الحساب ، فسكن روعها قليلا ، واستردت طمأنينتها شيئا . وأسفر القمر يرسل ضوءه الفضى الوداع ، فجعلت « ناعسة » تبعث النظر إلى « حمدان » فتراه سابحا في أخيلته ، آخذاً بسكان السفينة ، فسألت نفسها : مالها خشيته ؟ وماذا أفرعها منه ؟ وكيف تظن أن يوقع بها

شرا؟ أليس هو ذلك العاطفى الأبله كما كان دائما، يسبح فى أجواء الخيال، ويخاف حساب ربه، ويؤمن بالقدر، ويرضى بالنصيب، ويقبل ظاهر يده وباطنها حمدا على الفضل الجزيل ولو بات طالويا خاويا؟ إن ثورته تحاكي ثورة بركان تشتد وتزلزل، ثم تخبو وتخفت مكانها وكأنها ما كانت. إن موقفها ليس سيئا بالدرجة التى تخيلتها أول وهلة... بقى أمل!...

تهنت « ناعسة » بارتياح لحواطرها التى زادت اطمئنانا، فاعتدلت فى جلستها، وتابعت سلسلة أفكارها، لتنظر أولا فيما تفعله، لتمحو الصورة القبيحة التى رآها عليها الليلة. إنها امرأة عملية واقعية، لا لف ولا دوران عندها فى نيل مرامها والفوز بمآربها. فلتشهر فى وجهه أقوى سلاح. وهل أقوى من الحب - فى عرفها - على نحو كل قبيح، أو على الأقل فى التغاضى عنه؟ ماذا عليها لو حاولت إيقاظ حب « حمدان » لها ثانية؟ لقد كان مشبوب العاطفة نحوها دائما، يقدر جمالها، ويرى عظمة الله فى إبداع تكوينها. وكانت بسمتها تسعده، وغضبها يؤزقه. إنها ما برحت جميلة، بل زادت أنوثتها نضجا.

شعرت « ناعسة » لهذا الخاطر بالنشاط والدفء يدبّان فى كيانها، ويسكبان فى روحها الثقة، فأخذت تجرى أناملها خلال

جدائلها الفاحمة الحريرية تمسحها وترتها، وعضت شفيتها في لطف
تدغدغهما مرارا، حتى جرى فيهما الدم موزدا. ثم مالت على
حافة السفينة، ومدت يدها في حذر إلى الماء، وهي تحتلس النظر
إلى « حمدان »، فلما استوثقت أنه لم يبتبه لها، أخذت حفتين
شربت إحداهما، وغسلت وجهها المصبوغ بالأخرى وجففته
بطرف عباها. ثم ألقت برأسها إلى الخلف في حركة كلها دلال
تعلتها من المدينة، وأسبلت جفניה الكحيلين.

- « حمدان » !

سرى صوتها في الليل رقيقا هامسا كالنسيم، وقد حاولت جهد
طاقها - وهي ممثلة الفطرة - أن يخرج نداءها من أحلامه بلطف،
ويحمله على أجنحة رفاق إلى الأيام الغابرة يذكره بالماضي
وطهارته، وينفض عن غرامه غبار الزمن، ويمحو عن جبينه
غضون الغضب، ولكن الرجل لم يلتفت إليها، وكأنه تمثال ثبت
في مؤخرة السفينة، ويده على سُكَّانِهَا، وعينه ساجتات على النهر
الجارى أمامه.

- « حمدان » يا أخى !

علا صوتها عن الهمس قليلا هذه المرة، يشوبه عتاب
ورجاء، ويعتريه في نبراته اضطراب: وتململت المرأة في جلستها،

وعيناها متعلقتان بوجه الرجل الرابض أمامها كالقَدَر ؛ وقد انتضت كل أسلحتها، وشحذت كل مواهبها وغرائزها، وأهابت بها أن تواجه معها العاصفة .

قامت من مكانها ببطء وتردد ، ورجأة أتت بحركة عجيبة ؛ انزلت بجسمها كالحية على أديم السفينة ؛ وزحفت إلى « حمدان » على نخذيها وكفيها ... كانت تتحسس طريقها بحذر ؛ فإذا ما ضرب الموج السفينة ، أو هاجمتها ريح الشمال عاتية ، فاهتزت ومالت بعنف من جانب إلى آخر ؛ تشبثت « ناعسة » بالألواح الخشبية ، وأنشبت أظفارها كالهرة المذعورة ، حتى يهدأ النهر ، فتستأنف زحفها حيثما نحوه ، حتى إذا أصبح ما بينه وبينها لا يزيد على بضعة أشبار ، جثمت على ركبتيها تواجهه .

هنا صحا « حمدان » ورفع إليها جفنيه المثقلين بالهموم والسهر ، وحدجها في صمت ، وقد غلت مراحل غضبه دفعة واحدة ، فقطب جبينه ، وكشر عن أنيابه ، وزجر كالأسد الثائر ، وضرب الشكان بقبضة يده ، ودفعه عنه ، تاركاً إياه يفلت منه ، وقفز واقفا ، فتراقصت السفينة ، وقد اختل توازنها ، وتلاعب بها الموج المتلاطم كأنها كرة في يد طفل لاه ... وتدحرج « حمدان » إلى قاع السفينة مع « ناعسة » جنباً إلى جنب ...

كان البرد شديدا ، والريح عاصفة ، والنهر غاضبا ، فاستخفت
الحقيقة عن «ناعسة» التي ما كادت تشعر بجسد «حمدان»
ملتصقا بها حتى انشرح صدرها ، وأقبلت عليه تضمه وتلثمه
في لطفة مجنونة . فدنت عنه صرخة الملسوع ، وطوّح ذراعها
متقززا ، ثم قام يجم بركبتيه على صدرها ، وضغط رأسها بكفه
الكبيرة فوق حافة السفينة ، فشلت حركتها ، وجحظت عيناها .
وعلى ضوء القمر الهزيل قرأت «ناعسة» في وجه «حمدان»
المتقلص ، وفي عينيه المحترقتين ، وعلى فمه المطبق الصارم ،
ما قدر لها على يديه : فصرخت صرخة رابعة تحشرجت في حلقتها
وضاعت في الفضاء الواسع .

واستلّ «حمدان» في سرعة شيئا صغيرا لامعا من طيات
ثوبه ، وجم صائحا :

«بسم الله ، الله أكبر ا» .

وأعمل مطواته في رقبتها ، فتدفق دمها غزيرا قانيا يصنع
صفحة النهر السوداء ..

ولبت الرجل أمام «ناعسة» يتأملها مليا على ضوء القمر ،
وألقى نفسه يتداني منها ويأخذ رأسها بين يديه ، ويداعب شعرها
بين أنامله ، ثم هوى على شفثتها يقبلهما في شغف وحنين ،



ولبت الرجل أمام « ناعسة » يتأملها مليا على ضوء القمر ...

وهو يجمعهم :

« كان قلبي يحبك والله يا ناعسة » ... ما كان الأمل أن
تفعل ذلك ! ..

فتوارى القمر مسرعا وراء السحب الكثيفة القائمة ، كأنما به
رعب مما رأى ، وشجبت النجوم المبعثرة في السماء وَجِلَةً ،
وهدأت صفحة النهر الحرِّم الصُّمُوت ، بعد أن طوى ذراعيه على
سر آخر من أسرار أبنائه وَخَيْمِ الظلام !

ريجات آغا

« حاضر يا أمى ! » .

« أمرك يا أمى ! » .

لم تكن تجيبها بغير ذلك . ابنة طبيعة خَضوع ، نسمة فجر رقيقة ، تخطو على استحياء متعثرة في سِنِّي عمرها الخضر : ست عشرة سنة ، ينقصن شهرا أو شهرين . قسامتها دقيقة تطل من بينها عينان خضراوان تخفى نظرتهما الدهشة المطلعة أبدا أهداب ثقال . لها مبسم كأنما طوّحت وردة يا حدى وريقاتها البضة على صفحة وجهها ، فهوت نابضة تنوهج وسط بياض ناصع .

وقفت « ملك » تفرك جوانب ثوبها مضطربة ، وبصرها موصول بديباجة السجادة العجمية الثمينة التي تنبسط في الردهة الفسيحة .

وقالت أمها - تلك السيدة الوقور ذات المهابة والجبروت - وهي تعتدل في جلستها فوق الأريكة الوثيرة الحواشى ، تنساب

بين أناملها حبات سبحة من الحجر الأبيض :

« قلت لن تذهبي ، فلن تذهبي . لا أحب الصديقات ولا سيرة
الصديقات . أتعين قولى ؟ » .

— « نعم يا أمى ! » .

— « ستفنين ما أقول حرفا بحرف » .

— « أمرك يا أمى ! » .

فأسبلت « السيدة الكبيرة » جفניה رضا ، وصفقت تنادى :
« قهوة الصباح يا ولد ! » .

فانشقت الأرض عن زنجى صغير يحمل معدات القهوة على
صينية تتضوأ نظافة ، كأنما كان يقف بها وراء الباب . فوضعها
على الأريكة إلى جانب سيده ؛ ومشى القهقرى يغادر الحجرة ،
وعيناه المذعورتان عالقتان بشفتى سيده ، يراقب ماعسى أن
تفقوه به من مطلب . . .

— « بنات مائعات فى شرح الصبا ! ماذا يفقهن من شئون
الدنيا ؟ أين أهلهن ؟ كيف يبحن لهن الانطلاق كما يشأن ؟
رحم الله أيام زمان ! » .

وتمصصت « سعادات هانم » شفتيها . يهتز رأسها الضخم يمنة
ويسرة تحسرا على زمن مضى لا أوبة له .

ولبثت برهة تنظر إلى ابنتها شزرا ، ثم أردفت :
« اذهبي الآن إلى مدرستك ، وإياك أن تعيدي على مسمى
دعوة صديقة لك تصاحبينها في زيارة أو نزهة . إني لا أطيق
هذا التمتع . انتهي لدروسك ؛ فذلك والله أجدى عليك وأفضل »
- « أفعل يا أمي » .

وتدانت « ملك » منحنية تقبل يد أمها ؛ ثم جرّرت قدميها
منصرفه في خزي ؛ تحمل حقيبة كتبها تحت إبطها .

هبطت درجات السلم الرخامي مهرولة ، وهي تشفق بدموع
جيسة . ودلفت إلى المركبة المنتظرة على باب القصر الكبير
الذي ورثته أمها عن جدها ، وهو لا يحوى إلا الأم وابنتها ،
تقوم بأمرهما فيه حفنة من الخدم القدامى آلوا إليهما فيما
آل من التركية .

وكان زوج الخيل « المسكوفى » الأصيل يدق الأرض
بحوافره تحفزا وقلقا ، ويصهل في الفينة بعد الفينة ، كلاهما
مرفوع الرأس ، تنتشر أذناه ، وتختلج خياشيمه ؛ فيسارع
السائس إليهما مهذئا ، يربت ظهرا فتيا ، أو يتحسس عنقا تخمليا .
ولما ظهرت « ملك » هبّ الجمع يستقبلونها واقفين : السائس
والخوذى و « ريجان آغا » الذى أسرع إلى جانبها ، صاحب حق ،

يحياها ويحمل عنها حقيبتها، تضيء سحنته القائمة ابتسامة عريضة .
فأجابته باقتضاب، وجلست مطرقة ساهمة، وقفز هو يتخذ له
مجلسا إلى جانب الحوذى، على حين انطلقت الخيل قذائف تنهب
الطريق الخالى المألوف لديها نهباً، ميممة شطر « مدرسة ...
الثانوية للبنات » .

كان الوقت بعدُ مبكراً . فترددت « ملك » على عتبة المدرسة
تتلقت حولها مقطبة الجبين مغضبة، فابتسم « ربحان أغا » بتحنان
وهو يتأملها، ثم مال على أذنها هامساً :

« أى بنتى . ليس هناك سوى أمك، فهى لك الملاذ فى هذه
الدنيا، وهى الناصح الأمين . لا تغضبى منها، فليست والله بمتجنية
عليك، ولا تبغى من وراء حزمها معك سوى مصلحتك ودفع
الضرر عنك ! »

فاضطرم حياها، وأجابت بحدة :

« ما أظنها والله إلا مبغضتى - يلذ لها إذلالى ويسعدها إشقائى !
أو تلك حياة أحيائها ؟ »

فرفع الرجل عينيه مبهوتا نحو السماء، وقلب كفيه
يبسطهما أمامه :

« اسألى الله سبحانه أن يديم عليك - يا طفلى - تلك الحياة

التي تلعينها ، استغفرى ربك ، أنت حتما لا تعنين قولك ،
أنت تهدين ! .

— كيف تقول ذلك يا عم «ريحان» ؟ أو سمعت وصف
«سعدية» لحياتها المنزلية الهائلة ؟ و«فكرية» و«لواحظ» ؟ كلهن
يتمتعن بالحرية ، ويتصرفن في أفعالهن ، وينظر إليهن آلهن النظرة
إلى من شبَّ عن الطوق ، له كيان ، وشخصية مستقلة ، ورأى . إذا عن
لإحداهن الخروج في أى ساعة من ساعات اليوم خرجت ولم
يقف في طريقها أحد . وإذا أعجبها ثوب اشترته دون استشارة
أمها أو عمتها أو خالتها . أما أنا

واندفعت الدموع متزاحمات إلى مقلتيها ، وارتعدت شفقتها ،
فأسرعت تلقفها بأسنان صغيرة ناصعة ، وهي تعبت بطرف قدمها
في التراب توارى اھتياجها .

فأحاط «ريحان أغا» كنفها بذراع معروقة قوية ، وسار
بها خطوات داخل فناء المدرسة الخالى إلا من بضع فتيات
انتثرن في أرجائه . فدفع حتمية الكنب في أحضانها ، وقال يعرك
أذنها مداعبا :

« سيكون لى معك حديث طويل حين رجوعك إلى البيت .
سأنتظرك كالمتبع بالمركبة فى الثالثة والنصف تماما على باب المدرسة ،

فأطوف بك حول « الجزيرة » أنزهك حتى تهدأ أعصابك ، ويرتد عقلك الشارد إلى رأسك الصغير ، وبذلك تستطيعين التفاهم معي ووعى نصأحي . اتفقنا... ؟ » .

ومسح على ضفيرتها الحريرتين بزهو . وبغمة انحنى يحمق في وجهها بعينه الضيقتين لما بهما من حول ، ثم أخرج لسانه يلحق به الهواء ليضحكها .

فتطلقت أساريها ، وقد زال توتر اللحظة ، وغضت بصرها وأجابت في استكانة :

« نعم يا عم « ربحان » - اتفقنا ! » .

فأكبَّ يقبل مفرق شعرها ، ويدفعها أمامه يحضها على التقدم واللاحق بزميلاتها ، وهو يتمتم :

« حماك الله يا صغيرتي الطاهرة من الوسواس الخناس ، إياك ورفيقات السوء ... مع السلامة » .

فلوحت له بذراعها في وجوم دون أن تلتفت إليه .

وما انحدرت المركبة به في منحى ؛ وغاب كثر عجلاتها . حتى برزت ثلاث فتيات من وراء شجرة كافور كن يخبئن وراء جذعها الغليظ ؛ فتلقن حول « ملك » ضاحكات ، ساخرات ، يستند بعضهن إلى بعض متبايلات ؛ كأنما لا يملكن استمساكا ولا صدا

لعبهن . وجعلن يشرن إليها ويتهاسن فيحتد مرحهن ويعنف ؛
ثم يترنخن ويهترزن بشدة ، حتى لتكاد كل منهن تستلقى على قفاها
وهى تضرب نخذيها وتقفز طربا .

فالتببت وجنتا الفتاة ، وتسمرت مكانها تزدرد ريقها
بصعوبة ؛ فاصطنعت بسمه عرجاء ، وغمغمت برجاء :

« صباح الخير » .

فانفجرن هازئات في ثورة كظيمة .

قالت « فكرية » ويداها على خاصرتها :

« كيف تحذثننا يا سيدة الكل ؟ ألسنا من طينة غير طينتك -

لانتسب إلى أسرتك الكريمة ؟ » .

وصاحت « لواحظ » تلوح بقبضتها في وجه « ملك » المذعور :

« أنت على شاكلة وحدك ، وبنات المدرسة كلهن على

شاكلة أخرى ، كما يفهمك خادمك أسود الوجه - خسف

الله به الأرض ؟ » .

وتدخلت « سعدية » محتدة :

« ماذا تظنون أنفسكم يا قوم ؟ سادة والناس عبيد ؟ شيء

من التواضع يا خاق الله ! » .

وتجمهرت البنات تدعوهن المناقشة والضجيج ، حتى اتسعت

الحلقة ، فشملت من كان في الفناء ، واشتركت كل من عن
لها الحديث بكلمة جارحة أو ضحكة ساخرة . وعلت همهمة
الاستنكار ، وغمغمة النفور والحقد ، و«ملك» بينهن زائغة
البصر، حائرة الدمع ، تنفرج شفاتها في ابتهاج صامت ، ويغشى
مخياها حزن وهلع .

ولم ينقذها إلا دوى الجرس مجلجلا يؤذن بابتداء الدرس ؛
فانفضت البنات من حولها منحقات ، وقد أجمعن على مقاطعتها
ونبذها من زمريتهن .

وفي حجرة الدراسة جلست مشتتة الفكر ساهمة ، مخضلة
الأهداب . فلما سألتها المدرس عما استذكرته في يومها ، تلجلجت
وزاغ عنها الجواب الصواب ، وهي التي تَمْضِي الليل مكبّة على
كتابها تحت رقابة أمها ، فأعاد عليها سؤاله ، وحاورها ليخرجها
من صمتها ، وضيّق عليها الخناق ؛ فانفجرت باكية وسط قهقهة
البنات الجذلة الشامتة .

وفي قاعة الطعام اندفعن جامحات صاحبات يشغلن كل المقاعد
ويدفعنها جانبا بالمناكب والمرافق ؛ فارتطمت بجدار ووقفت
بجواره منكسة الرأس ، تفرك كفيها وتعض شفيتها حرجا ،
والبنات يتنافسن في إلقاء العظام حولها، وهن يرسلن صفيرا داعيا

كمن يحض كلبا على طعام .

وهجمت عليها لإحداهنّ تخمش ذراعها البضتين في تشفّ ،
تدميها بأظفارها القذرة ، وهي تموء كهزة غضبي :

« لا تؤاخذيني ! فأنا بطبيعتي أمقت الكلاب ! » .

فاستغرقت الأخرى في ضحك أهوج مستمر .

وما انتهى النهار ، حتى زحفت « ملك » مهتمة ، مضعضة
الأعصاب ، مسلوقة الحواس إلى المركبة المنتظرة على باب
المدرسة . فانزوت في ركن منها تدس رأسها في أحضانها ،
مصدوعة الفؤاد ، وتنشج نشيجا عاتيا جافا هز كيائها يزلزله .

وفي غدها ذاقت الأمرين ، وتنابت عليها الأيام تعاقب
الأهوال من كيد البنات ، وسعة حيلتهنّ ، وتعدد فنونهنّ لإذلالها
وتحطيم كبريائها وإرغام أنفها . حتى أهارت مقاومتها . ففاتحت أمها
ذات ليلة في أمر نقلها إلى مدرسة أخرى تبدأ فيها حياة جديدة ،
وتنشئ علاقات طيبة مع زميلات تطمع أن تجدهنّ أرق حاشية
وألطف نفسا ، وأقرب إلى روحها من زميلاتها في هذه المدرسة ،
فتقرّ عينا ، وتهدأ بالا ، ويتفتح ذهنها لدروسها كسابق عهدها .
دافعت عن قضيتها بكل ما في كيائها من ذرة حيوية ، تكلمت
بحماس ، وحاولت جاهدة أن تشعر أمها بما تقاسى من اضطراب

نفسانى يربك عقلها ويضعف ثقتها بنفسها ، ويجعلها أضحوكة
مجتمعها الصغير . فتحت لها قايها ، وكشفت عن مشكلاته التى
استعصت عليها . أطلعتها على تدهورها أديبا ومعنويا ، وهى
لا تملك إلا الحسرة على حالها . وصفت لها قسوة النيار الذى
يجرفها دون ماشفقة ، وأفصحت عن عجزها عن مقاومته . قبلت
يدى أمنها وانحنى عليها تمرغ وجهها على ركبتيها ، وهى تشرق
بدموعها ، وتستحلفها كى تقفها وتعمل على إرجاع السكينة إلى
روحها المزعجة .

فاعتدلت « سعادات هانم » فى جلستها ، تشمخ بأنفها ،
وتنفض عن عنقها الذراعين المتشبهتين به فى ابتهاج . وصاحت
بصوتها الجمهورى الذى طالما ارتعدت له فرائص أهل الدار :
« ما هذا الهراء الذى أسمع ؟ ما هذا الضعف والخور ؟ أمن
أجل حفنة فتيات وضيعات تفرزين وتتركين لهنّ المجال ؟ مالك
وما لهنّ ؟ أنت فى حالك وهنّ فى حالهنّ . لا أستطيع فهم قولك
لنهنّ سبب اضطراب ذهنك . أحاجى باطلة ! أنت الخاملة ...
الكسول ... بطيئة الفهم ! »

ففتحت « ملك » ففها تحاول « إيفهامها » ، فكان نصيها لطمة
طرحتها أرضا على ظهرها . وأمرا بالذهاب تّوا إلى فراشها .

فكفـكفت المراهقة الحيرى دموعها ، وتحاملت تللم نفسها ،
وقد زمت شفيتها فى حزم ، وانسجت دون أن تلتفت
ثانية إلى أمها .

وفى الصباح ، سعت إلى الفتيات ذليلة مغلوبة على أمرها
تسترضى وتسترحم ، وتتقرب زُلْفى ؛ حتى رضين عنها وعفون
بعد لأي ، مشرطات كى يقبلنها فى زمرتهن أن تجاريهن فى كل
أفعالهن دون تردد ولا ترفع . فأكبت التعسة لهفى 'تهج منهجهن
وتعب عبًا من دستورهن : اختارت مدرّسا «تجبه» وتعاكسه
بغمزاتها ولمزاتها أثناء الدرس ، ومضغت «اللادن» ، ونفقت
دخان اللفائف مستخفية معهن وراء دورة المياه ، وشرعت ترشو
البواب وتنسلل بصحبتهن إلى دور الصور المتحركة تنظر بعين
والهة إلى أبطال التمثيل ، وتحملق فى أجواء الخيال تحلم بفتاها ،
وراحت تجوس معهن الشوارع والمنزّهات العاقمة تلهو وتمرح ،
ويعاكسها الغوغاء فتجاوبهم وتشاكسهم ، وتلقى عنهم فنون
الحياة كما يفهمونها ...

وكذبت على «ريحان أغا» عندما تأخرت فى جولاتها ، زاعمة
أن سبب تأخيرها دروس إضافية تتلقاها بعد انفضاض المدرسة ،
وتشدقت بالقصص والروايات الشائنة التى تشيعها سيئات الخلق

عن مدرّساتهنّ وصويحباتهنّ . وتلقت أول قبلة على ثغرها من مدرّب «التنس» بالمدرسة . واشتطت في حماقاتها وطيشها ، وفاقت البنات مجونا واستخفافا ، حتى عقدن لها لواء الزعامة عن طيب خاطر . كيف لا وقد اندفعت تسترضيهنّ فتنفق عن سعة ، وتشتري لهنّ أكواما من الحلوى والفاكهة وكل ما اشتهته نفوسهنّ . وتحملت وحدها دفع الرشوات ، فوليتها تنظيم المغامرات وفق هواها .

كانت تقترض من «ريحان أغا» فلا يبخل عليها مربيها الخنون ، بل يسخو لها بما سألت من حزماله . فلما لم تعد تقنع بما تناله وإن كان كثيرا يتوالى كل يوم ، بدأ الشك يساوره والقلق يخامر قلبه . فراجعها في لين وترفق . فما كان منها إلا أن ثارت به وغاضبته أياما ، وقد تبدل خلقها ، وزادتها «الزعامة» رعونة واستعلاء . فدفعته يطالب أمها «بمصروف» شخصي لها . وانتظرت عن بُعد . ثارت «سعادات هانم» - كما تخوّفت «ملك» - في وجه تابعها الأمين ، ورمته بالحماقة ، تذكره بأن النقود في يد البنات مفسدة ، وأن . . . وأن . . . فتحمل ثورتها في استكانة ، حتى رضيت أن تخصص لابنتها مبلغا زهيدا بعد أيام من المحاورة والإلحاف في السؤال عن وجوه إنفاقه . كانت تجربة محرّجة لم تحاول «ملك»

تكرارها . وسلكت أيسر السبل . اندفعت تسلب أمّها ما تستطيع .
امتدت يدها إلى « النقود الصغيرة » التي تركها تحت وسادتها أو
فوق منضدتها أو في درجها . وتبلد حس الفتاة ومات ضميرها ،
حتى ارتضت أن تترك أمّها تهتم الخدم بالخيانة ، وتمضى هي هاربة
إلى مدرستها والثورة في البيت أتون يتأجج .

وتتابع الحوادث بعد ذلك مسرعات . وانزلت « ملك »
تهوى بتفكيرها وأفعالها نحو الحضيض . قطعة حجارة تندرج
مندفعة على جوانب جبل ، حتى ارتطمت بالقاع ، فتفتتت محسورة
عندما وافقت بنات جماعتها اللاتي تفتق ذهنهن عن الخلاص من
حياة « الرق » للآل والمدرسة بالزواج من أحبائهن ...

ثرت « ملك » في مخيلتها صور من قابلتهم من الرجال ،
فوجدت أن أكثرهم قريباً إلى قلبها المتخبط هو مدرب « التنس »
فارح الطول ، عريض المنكبين ، ضامر الخصر . شعره منفوش في
إهمال سبى قلبها الغرّ . وفيه خشونة جذبها تربطها إليه وتذكرها
بأبطال الروايات السينمائية... وفوق ذلك فهو مانحها قبلتها الأولى .
وهيات أن تنساها ! إنها تذكر ذلك اليوم جيداً . لم يكن الرجل
ليجرؤ على الإقدام على فعلته لو لم تسع هي إليه في ملعبه النأى في
طرف الحديقة القصي وتمضى قرابة الساعة في محاوره معه ومناوشة ،

حاولت جاهدة خلالها أن تخرجه من تزقته وشعوره بالدينوية حتى يضيع رشاده ويأخذها بين ذراعيه ، كما قصت عليها صديقاتها ما حدث لهن . فلما يئست منه ولم تنجح إلا في إثارة مشاعرها هي ، ارتمت عليه تشبث بعنقه رافعة إليه وجهها ، زهرة ندية متفتحة ، فنظر الرجل إليها والدم يدوي في رأسه يتأملها : ملكاً رائع الجمال يستجدي ، ضلّ طريقه إلى الجنة فأخذ بيده في ذلك اليوم إلى الجحيم . وكان يوماً ! .

فلما أثارت صديقاتها موضوع زواجهن طار خيالها إليه . فدبرت ما يلزمها من مال ، وفاتحته دون مواربة في زواجهما . فتردد الرجل لحظة متخوفاً من المسؤولية ، ولكنه مالبث أن أذعن لرغبتها عن طيب خاطر أمام ادعائها أنها يتيمة الأبوين حرّة التصرف في نفسها ، وأن « عمها » التي تعيش معها لا إرادة لها إزاء إرادتها هي . فضغط ذراعها - بحشونته التي تعشقها - موافقا ، واجتذبها ذاهباً بها .

تزوجت « ملك » . وتزوجت فتاتان أخريان من جماعتها : إحداهما بنى بها صبىً كوّاء لامع الشعر منمقه ، يرفع يديه عن دراجته وهو يسابق بها الريح عبر الحارات والأزقة . والأخرى بنى بها تلميذ ثانوى مدمن الرسوب ، يحفظ عن ظهر قلب أشعار

الغزل وعبارات الغرام . أما سائر الفتيات فقد أحجمن في آخر لحظة وهربن ؛ كما أفلتت صاحبات الاقتراح أنفسهن - « فكرية » و « لواحظ » و « سعدية » - بعد أن أوقعن من أوقعن وكبّلنهن بقيد متين .

o o o

أضحت « ملك » تمضى النهار مع زوجها ، وتنتظر « ريحان أغا » على باب المدرسة في الثالثة والنصف تماما - كعهدها - ليعود بها إلى البيت .

وذات يوم اصطحبها « حنى » لتزور آله في « المغربلين » ، فتعثرت ربيبة القصور مستندة إلى ذراعه ، والظلام دامس في وضوح النهار ، تتحسس مواقع قدميها على درجات السلم الخشبي المتأكل الذى يئن متوجعا كأنما يسترحم كي يخففا الوطء ، وأخيرا وصلا إلى كوة دفعها زوجها داخلها ، فتوقفت الفتاة على عتبتها تتحشرج في حلقها شهقة ، وهى تشعر أنها خطت داخل بئر عفنة تنضح رطوبة ، وأخذت عيناها تتعودان الحلسكة الكثيفة شيئا فشيئا ، فرأت على ضوء ذبالة شاحبة تتراقص في إعياء امرأة غائرة الحدقة ، ضامرة الصدغ ، تتعلق بها شردمة من أطفال مهزولين صفر السّحن ، وعلى قطعة من حصير بال حطام رجل ملقى ، يستبد

به سعال عنيف يمزقه يكاد يزهق روحه ، كلما سحب أنفاسا من
«جوزة الحشيش» التي يحتضنها بذراعيه المعروفتين .

تسمّرت «ملك» على عتبة اليكّن الذي تقيم فيه أسرة
زوجها ، وقد ظنت بعقلها الظنون . فأمرّت كفها على جبينها كأنما
لتزيح الغشاوة التي تنسدل عليه ، أو لترفع الحجاب الذي يطمس
عينها ، ولكن هيهات ... انطبع في ذهنها صورة الحضيض
- بيؤسه وهوانه - مجسمة . فسرت في كيانها كاه قشعريرة
كدبيب النمل بأرجله الحشنة تخذرها وتدغدغ أعصابها . ولكنها
سرعان ما زابتها عندما أحاط «حنفي» كسفيها بذراعه
- التي تعشق قوتها وخشوتها - يربّهما تارة ويمسح شعرها
تارة أخرى .

وكانت «ملك» قد جاءت لهم بهدايا متعدّدة على ألوان شتى
من طعام وملبس . فأكبت توارى صدمتها وتلهى بتوزيعها على
كل منهم : فما كادت تفعل حتى نسوا تهيبهم ، وتكالبوا
على اللحم والفاكهة والثياب ينهشونها من لفائفها ويتخاطفونها ،
غربانا مسعورة ؛ وعلا صراخهم وضجيجهم وهم يتنازعون
ويخمش بعضهم بعضا . ثم أحاطوا بها وقد حشروا أشداقهم حتى
كادت تتمزق ، وراحوا يتشدقون ويتمصون ، وأقبلوا عليها

يشمونها محومين عليها تحمل معها بعد شيئا .

فتقهقرت « ملك » زائغة عينها ، مذعورة نظرتها ، تستنجد
في صمت بزوجها : فقهقه « حنفي » ووقف أمامها يحميا ويهش
عنها إخوته . فضغطت ذراعه شاكرة : وهمست تغص بريقها :
« لنخرج - أرجوك ! » .

فخرج بها : ولكن بعد أن همس إليها بدوره :
« أليس معك بعض النقود ؟ هم فقراء مساكين ، وسيدعون
لك بالخير طويلا ! » .

فدفعت إليه بحقيبة يدها دون أن تنبس بلفظ ، ليلتقطها
ملهوفا يلعب شفقيه بلسان رفيع ، حرباءة متلظة . وارتعشت يده
في تشوق حين دسها في الحقيبة ثم أخرجها قابضة على رزمة
من الأوراق المسالية مختلفة الفئات : فأخفي في جيبه دسا
ما انتقاه ، وأعطى أباه وأمه ما استبقاه ؛ ثم سحب زوجته وخرجوا .

* * *

وزادت الأيام « ملك » تعلقا بـ « حنفي » وشغفا ، كما زادت
جرأة وتهورا . فتوالى غيابها عن دروسها ، وطال أشهرها متعاقبات
عن المدرسة ، مصطحبة زوجها بمنزلة التنس . فلم يلبث أن طرد
من عمله وشرّد . فلم يأبه بذلك ولا ابتأس ، وقد تكفلت به

زوجه . فكثر الضغط عاها في طاب المال ، وكثرت - تبعاً
لذلك - سرقاتها من البيت .

ومرّت الأيام ...

ثم كانت الطاقة الكبرى . أرسلت إدارة المدرسة إلى أمها
التقرير الشهري عن سلوك ابنتها ومدى مواظبتها وتقدمها في
علومها . وكان صك عار حمدت « ملك » - وهي تنلوه بشفاه
مرتعشة - للشيطان معونته ، إذ أخضع لها قلب خادم أجزلت
رشوته ، فحمل إليها المظروف قبل أن يصل إلى يد أمها . فزقته
بتشف وغيظ قطعاً صغيرة حرقها بنفسها في الموقد الحجري في
مطهى البيت النأى . وتنفست الصعداء وهي تنفض يديها بما يكون
قد علق بهما من تراب . وراحت تصيد بعد ذلك كل كتاب
يرد من المدرسة وتبيده .

ومرّت الأيام ..

وحدث أن وصل التقرير المدرسى الشهري في غير ميعاده .
حملة أحد السعاة توا إلى البيت . وكان الوقت ضحى والخدم منهمكين
في أعمالهم ، والحديقة خالية إلا من « الهانم الكبيرة ، جالسة تصطلى
في الدفء الذهبى ، وترشف قهوة الصباح بتلذذ متمهلة . فتقدم
الساعى منها وحيّاها وأعطها المظروف . فما وقفت على لب

الرسالة حتى هبت ملدوغة تضرب كفاً بكف ، تنوشها الخيرة
وتذهب بها الظنون كل مذهب . أرغت وأزبدت . سبت ولعنت
آباء الخدم وأجدادهم وقد أقبلوا على صياحها مهرولين ، حتى
الساعى المسكين لم يسلم من بعض الرذاذ . وظلت يومها كاه نائرة
كأنها نمره متحفزة ، تاسم الهواء وتركل الأرض . ورفضت أن
تذوق طعاما . حتى إذا عادت « ملك » - يتبعها « ريجان أغا » حاملا
حقيبة كتبها - ألقى بنفسها عابها تشبث بشعرها تطرحها أرضا .
عفرت بوجهها الأديم ولوت ضفيرتها الحيريتين حول رسغها ،
ثم انتضت حذاءها وهوت به على كفتي الفتاة وظهرها تلهبها
ضرباً مبرحاً .

فرفعت « ملك » ذراعها تذود بهما عن رأسها الضربات . ثم
تخاذلت قواها ، وبردت أطرافها ، ودارت الأرض بها ، وغابت
عن الوجود . وانبتق من ثغرها خيط رفيع من الدم القاني ، وسال
على صدغها متدحرجا على عنقها ، ثم انحدر على صدرها يلطخ
مريلتها الناصعة .

فانزعج الخدم ، وهرعت زنجية منهم سمحة ضخمة الجثة ،
تحيط سيدتها الكبيرة بذراعها القويتين فى حزم ، وتجذبها بعيدا
عن الفتاة ، على حين انحنى « ريجان أغا » على ربيدته محمما . فأثار

منظره « سعادات هانم » حتى استدرت نحوه تصب عليه جام غضبها ، وترميه بالغفلة ، وتصمه بالعتة والخبال .
وطال إغماء « ملك » . نضحوا وجهها بالماء ، وفركوا كفيها وباطن قدميها ، ودسوا تحت أنفها قارورة « النوشادر » . دون طائل .
فهرول « ريحان أغا » وجاء بطبيب على عجل . فألقى نظرة شاملة على العليلة ، وعدّ نبضها وفحص رثتها وجنبيها ، ثم اعتدل يخلع منظاره :

« سليمة بإذن الله . دعوها مستريحة . لقد تلقت صدمة عصبية أكثر منها جسمية . ولكن ربنا ستر ... الجنين بخير ! » .
فكأنما وقعت الواقعة ، أو أخذت القوم الصاعقة . شلت الأجساد ، وتحجرت الحركات ، وفغرت الأفواه ... ثم صرخت « سعادات هانم » ملئعة صرخة مدوية ، وهجمت على الطبيب تغرز أظفارها في ذراعه وتهزه هزاً ، وعيناها رجراجتان ، كحيتي زئبق ، تستكشفان خليجات وجه الطبيب :

« ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ أعد على سمعى كلماتك ! لم أفقه قولك ، ولا استوعبت معناه ! بربك أرح بالي ! » .
فأرتج على الطبيب الغافل ، وفاته استنتاج الحقيقة وهو يربت كتف « سعادات هانم » مشجعاً ، ويقول بتؤدة :

« اطمئني يا هانم - اطمئني . قسما إن السيدة الصغيرة بخير ،
ولا داعي هناك لكل هذا الانزعاج . كما أن الجنين لم يصب بأذى
أذى ، وهو يتحرك في أحشائها بأمان ... »

ففاض الدم في وجه « سعادات هانم » وتهاككت في صمت
على مقعد تتعلق بذراعيه ، وهي تسأل بصوت هادئ أبعد خطرا
من عنق العاصفة ، تلونه رقعة أمضى من نعومة السم :

« والجنين - كم عمره ؟ » .

« - أربعة أشهر يا هانم . ربنا يتم بخير ! » .

وللم الطيب أشياءه وهو يتسم راضيا عن نفسه الرضا كله ،
وأصلح من وضع طربوشه ، ودس الجنين الذين أعطياه في
حافظته ، وقرأ عليهم السلام ، ومضى ... وانفجر الكون ...
ولولت الخادما تيمایلن أسي ، ولطمن الوجوه ،
وشققن الجيوب .

وجلست « سعادات هانم » مكانها ترقبهن بنظرة جامدة كأنما
نحتت من صخر . فلما التففن حولها ينهضنها مواسيات لم تفه
بحرف ، بل هوت بينهن سلاء .

ومضت أيام ثلاثة . قطعة جحيم ، البيت تسوده كآبة ولوعة ،

والكل يشعر بالعار يلطخه ويتعلق بأذياله . وانزوت « ملك » منكسا
رأسها مقروحة عيناها في ركن من حجرة أمها ، ذليلة مهيضة الجناح .
وانشقت الأرض عن أقارب وأهل كثيرين ازدحم بهم
القصر على رحبه ، يترقبون الأحداث ، وقد بلغهم أن « سعادات
هام » تتردد بين البقاء والفاء .

وحلت ساعة ، فتحت المريضة عينيها لأول مرة بجهد ، ووجهها
يقطر شحوبا ، ويتفصد عرقا غزيرا ، ودارت بعصرها في السحن
المنحنية عليها : من طيبب قلق ، ومحام متسائل ، وجارة مشفقة ،
إلى خادمة ملهوفة ، وابن عم آهل ، وابن بنت خالة طامع !
ثم لمحت « ملك » ...

فهبت منحايلة على نفسها تشفق وتضرب بذراعها الهواء ،
غريقا يقاتل متخبطا . وجحظت عيناها ، وتحسرت أنفاسها ،
وهي تصيح بجنونة :

« أخرجوها من هنا - اطردها ! الكلبة . الفاجرة !
اطردها ! اطردها ! اغربي عن وجهي ! اغربي ! » .

فأحاط الجمع بالأم يهتفون من روعها ، ووخزها طيبب
بمخدر ، فانتزعت ذراعها منه قسرا ، ولطمت السلاح فألقته
أرضا ، واعتدت في جاستها ، تحترق جمرتان فوق عظمتي

صدغها . ثم أشارت إلى محامها أن اقترب ، وقالت بصوت
جهورى لا يشوبه وهن :

« أعرنى أذنيك هنيهة وكن واعياً قولى . أنا الآن - كما يشهد
الأطباء - فى تمام قواى العقلية . فاسمعونى جميعا : لقد جاءت
وحيدتى « ملك » شينا إمرأ ... غافلتنى وحمات سفاحا ! » .

وكأنما طعننها كلماتها ، فقد هوت بجمع كفيها تضغط قلبها ،
ثم استطردت ودمعها يسفح :

« أشهد الله أنى بريئة منها ! » وكزرتها ثلاثا : « بريئة منها براءة
الذئب من دم ابن يعقوب . لعنة الله على من يفترى على منكم لفظا
لم أقله ! لعنة الله على من يغير وصيتى من بعد مأتى ! »

واستكثبت محامها ما استكثبت ، وتحاملت تعض شفيتها
الزرقاوين ، حتى وقعت بخط واضح .. وبقاة انهارت حطاما .
وسكنت إلى الأبد .



جررت « ملك » قدمها جرا ، ووجهتها «المغربلين» تمشى بعض
الوقت ، وترتمى حيناعلى الطوار تلتقط أنفامها المضطربة، وارتسكت
إلى جدار مرة ، فطرق سمعها جرس يجلجل ، فلما اعتدلت تنأمل
البناء الذى تستظل به ندت عندها شهقة خنقتها ، فتحشرجت فى حلقها،
وانهمرت دموعها ، وما لبثت أن هرولت تفرّ ، متخبطة تتعثر ،

تأى عن مدرستها قبل أن تلدها تليذة أو معلبة أو خادم .
فلما لاح لها بيت زوجها بين أقرانه قبور الأحياء ، انتعش
فؤادها المثقل شيئا ، وقد أضحي الكنّ المظلم العفن الذى نفرت
منه قبلا منتهى أملها وشمس حياتها . فأكبت على السلم المتأكل
الموصل إليه تزحف صاعدة ، وقد بلغ منها التعب مبلغه . نقرت
بابه بأنامل مثلجة ترتعش . فما فتح لها « حنفي » حتى ارتمت على
صدره تتعلق بعنقه منتحبة تنسج ، وتسكب فى أذنيه قصة
ذها وتشريدها .

مرّت دقائق وهو يستمع فى صمت هالها منه خلالها جمود ،
ثم نفور ، ثم فظاظة حين دفعها عنه بقسوة صأحا :
« مالى ولكل هذه البلايا ؟ ما شأنى بك حتى تلقى جثتك على -
صخرة على صدرى ؟ » .

فصرخت ملسوعة ، وتشبثت مستميتة بأطراف جلبابه .
وشقت صرخاتها جنبات البيت الواسع المهتمم مترددة أصداؤها ،
روح ضالة تستنجد ، وقد لذعتها السنة السعير تهب عليها لافحة .
فتجمّع الجيران . أناس ضامرون كأنما من الأجدات هم
لساعتهم ينسلون ، طبع إدمان المخدرات على سخنهم الكالحة صبغة
لا تفوت العين . وقفوا يرقبون المشاجرة الحازة ببرود ، ثم

تقدمت شوهاء منهم مكتئبة إلى « ملك » ، ورفعت كفا ذابلة مسودة الأظافر إلى كنفها تنحيا عن « حنفي » قائلة :

« دعيه يا امرأة ، ربنا يحزن عليك . هو مسكين لا يجد ما يبلغ به . الرجال كثير ! » .

وتدخل ذو صوت أجش : « أنتِ حتما تعرفين أبا جنينك ! حرام التجنى على عباد الله ! اذهبي إليه بحملك ! » .

وقال ثالث :

« حنفي فقير لن تستخلصي أو تفيدى منه شيئا ! دعيه لآله ! » .

وقال رابع : « لن تعدى فخلا سواه ... والفحول كثير ! » .

وتحمس « حنفي » متشجعا ، فأزاحها عنه بغلظة وهو يقول :

« ما هذه الرزية التي ارتمت عليّ ؟ أغيشوني يا ناس من

هذه المصيبة ! هي تدعى أنى زوجها ! زوجها ... أتسمعون ؟

ها ، ها ، ها ! ولماذا لم أدعكم إلى زفاني وأتم أحبابي وعشيرتي ؟

اسألوها بربكم ... اسألوها متى تزوجتها ؟ وأين ورقة الزواج ؟

أف لهؤلاء الساقطات ! » .

وولى البائسة دبره ، وهم بدخول السكن الذي بخل به عليها

يؤويها ليلتها ، فهجمت عليه تنشب أظفارها تغرزها في ثنيات

عنقه وتحذبه ليخرج إليها ، فاستدار نحوها ، والتحم كلاهما في قتال

عنيف أطبق هو خلاله على عنقها المرمرى بأصابعه الغلاظ
يضغظه فيكاد يزهق روحها ، وهو يصيح ساخرا متشفيا كأنما
هناك بينهما عداوة منذ بدء الخليقة :

« لم يكن المأذون سوى صديق لي كقواء ارتدى ثياب أبيه
المقرئ... أتسمعين؟ فلم يكن ما بيننا عهد أو ميثاق . أتسمعين ؟
أكنت مجنوننا حتى أوثق نفسي إليك عمرى ؟ لا شأن لي بالذى
تحملينه بين أضلعك وتحاولين إلصاقه بأب - بي ، وأنا براء منك !
اغربني ! اغربني عن وجهي ! » .

فدوى الدم يهدر في دماغ « ملك » نابضا في أذنيها يقرع
طبول موت ، وغشى عينيها يصبغ الدنيا بلون الجريمة . فغام
بصرها ، وتراقصت المرثيات دهوثة متداخلة ، واضطرب تنفسها
كأنما تشهق تحت ماء . حتى إذا بلغت منها الروح الحلقوم جمعت
شئات قواها وركلت الشيطان الجاثم فوق صدرها يضغظ عنقها
ركلة ألقته عنها على ظهره ليرتطم - والمكان ضيق - بجازر السلم
المتأكل ، فهوى به من شاهق ، وهو يصرخ صرخة نكراء تقشعر
من هولها الأجنّة في الأرحام .

◊ ◊ ◊

لفظ السجن « ملك » بعد عامين ، وقد نضب من جسدها



لفظ السجن « ملك » بعد عامين ... وعلى ذراعين معروقتين سقطتهما الشمس حملت ابنها ...

رحيقه ، وخباً من روحها شعاعه . شحب محيأها ، وانطفأت عيناها
واكتسبت قسماها جوداً من حياة القسوة والخشونة ، قناعاً
لا يستشف المرء خلاله أفكارها ، ولا يصيب في تلمسه مشاعرها .
وعلى ذراعين معروفتين سفعتهما الشمس المحرقة ، حملت ابنها -
كائنات كبير الرأس مثقله لا يكاد يرفعه عن كتفها المضناة ، يحيط
عنقها الأعجم بعودين بييسين . على حين تقوست ساقاه وتدلنا .
فتحوا لها الباب الحديدى الرهيب ، فخرجت فى صمت -
فى استسلام يشوبه حزن ، كأنما يطردونها من أمن إلى غائلة ،
من نعيم إلى أرض يباب . خرجت لا تعرف لها سبيلاً
ولا مسلكاً . أين المقر؟ أين المقر؟

فناداها من خلفها أن تمهلى صوت متهدج تتطاحن فيه دموع
وضحكات . تسمرت مكانها مطأطئة الرأس ، حتى إذا ضغطت
كتفها تجذبها كف فاحمة متكسرة أظفارها تعلوها القنارة ،
أكبت لهنى' تقبلها وتمزغ وجهها بها ، وهى تتهد ، ثم تتشممها
وتتحسسها بخذها .

قال «ريحان أغا، وهو ينشج :

« الحمد لله على السلامة يا سيدتى « ملك هانم » ... الحمد لله

على السلامة ! كنت أعد الثوانى عدداً ! » .

وحنى عليها يحمل عنها المِسْحَ التمس . ثم رفع هامته وتأخر
عنها خطوة كعهده ، وأشار في أدب وخشوع :

« من هنا يا هانم . لي حجرة متواضعة في بدروم أطمع أن تشر فيها ! » .
وأوصلها إلى الحجرة وتركها تتعزف أركان المكان ومحتوياته
القليلة ، وحمل ققمه النحاسي بعد أن ملأه جمرات حمرا تنوهج ،
عيون جانّ براقه ، وهرول إلى مكانه المختار أمام ضريح « السيدة
زينب » مندسا في زمرة « الأتباع » ، و « أصحاب العشم » من شحاذين
ومجدوبات ومدروشين . لا تكاد سيارة تقف حتى يهرع إليها
يفتح بابها وينحني نصفين - بعظمة الأيام السالفة والقصور
الشاحخة - يرقى ببخوره الفواح زوّار « الطاهرة » ويتلقى - بعظمة
أيضا - ماتجود به نفوسهم من قروش وأرغفة محشوة بالفول النابت .
وفي كل جنازة تجده بين حملة القماقم - لا تخطئه العين : عبدا
فارعا في لون الأبنوس ونفاسته ، طودا لا تقله الأعاصير
والغوائل ، عليه حلة رسمية سوداء قد شحّب لونها ورق نسيجها ،
يسير مرفوع الرأس ، أنفه شامخ وحذاؤه فاغر . طابعه الجد
والاهتمام بعمله ، ينشق فمه عن أسنانه الناصعة فجأة بين حين
وحين ببسمة هائلة حاملة ، هي صدى لخلجة الفرح في صدره ،
وقد ضمن لقمة اليوم لـ « ملك هانم » ! ...



... ترقص حافية ، أنامل قدمها الدقيقة أطراف ورد ...

رنين الكأس

كانت في حيرتها وتلفتها ظبية غريرة - ظبية فزت من جانب أمها تجرب حظها أول مرة في معترك الغاب . لها وداعة الطيبة ، وجيدها الأهيف ، وساقاها الدقيقتان ، وعيناها النجلاوان ، تنبعث منهما تلك النظرة الزائغة ، وهي تتمايل مع النغم مثنية في رقصتها ، دائرة يبصرها بين السكارى الصاخبين . وكانت ترتدى حلة للرقص بالية تناثرت الفتوق في مواضع منها ، كأنما مزقت الغصون والأشواك إهاب الغزال الشارد .

وقفتُ مبهورة الأنفاس أتأملها . ولو قلت إنها جميلة لظلمتها ، ولم أبلغ من وصفها ما يجب لها . كانت هي الفتنة اليَقْظَى والسحر المشرق . اُفْتَتْهَا تَسْبِي ، وخطوتها تملك على المرء شَعَاف قلبه . ترقص حافية ، أنامل قدميها الدقيقة أطراف ورد ، لا تكاد لفرط خفتها تلمس منصة المسرح العتيق الذي يُنّ ويتوجع عاشقا بَرَّحَ به الوجد .

أثارت رؤيتها مشاعري - أنا العجوز التي فرغت من الدنيا ،

ونفضت يديها منها . فساظنك بالرجال والشبان الذين يزدحم بهم
ذلك الملهى الرخيص ، حيث اعتدت أن أزحف إلى بابيه في
منتصف كل ليلة ، أستجدي رُوَّاده .

وكنت وحقنة من سابلة الليل - بائع اللوز والنول السوداني
المقشور ، وبائع عقود الفل ، وقى وفتاة من لاقطى أعقاب
اللفائف - نحشر في نافذة جانبية وطينة متطاولين بأعناقنا لنستمع
بما يدور في دخيلة الملهى .

تهلل رفقائى للصبية الراقصة ، وكالوالها تحايا المديح والإعجاب .
وتمصص بائع السوداني شفتيه حسرة على فقره الذى يسكنه على
مضض ، ويربطه بزوجه « نبوية » التى يحاكي وجهها المستطيل
الأغبر تخمة البغل الذى يجزّ عربة التنظيم . وبرقت عينا المراهق
- لاقط أعقاب اللفائف - وهما متشبثان بالجسد الغض المتلوى
أمامه ، ونزع ذراعه ذاهلا ، من حول عنق صاحبه ذات الشعر
المنفوش والمنديل الكالح . فعضت الطفلة المرأة شفتها غيرة
وكدا ، وصاحت :

« ألبسونى ثوبها أصبح باهرة الطلعة ، وأرقص خيرا
مما ترقص ! » .

فصفع الغلام قفاها صفعة كادت تطرحها أرضا ، وقال بلهجة

السيد صاحب الحق :

« اخرجنى ... وامشى ورائى ! »

ومضى فى سبيله يتبعه دامعة العين - عبدة رقيقة .

فقهقه رفيقائى الآخران ، واستدارا يتابعان النظر إلى ما يدور

على المسرح من ألوان المُسَّع .

أما أنا فلم تستهونى الغادة برقصها ، إذ كان من الواضح عندى

أنها لا تعرف منه غير اسمه . ولم يخطئ حكيمى عليها وأنا الراقصة

العتيقة ربيبة المهنة منذ تفتحت عينائى على دنياى التاعسة .

كانت هذه الراقصة جديدة على الحى لم تظهر قبل الليلة . وقد

استنتجت أنها عذراء . فضحتها نظرتها الجزعة - كَمَلًا وسط قطع

من ذئاب . رَبَّيت لها . فقد وقفتُ وقفها يوما ، وجزعت

جزعها . ثم ثم تبلد حسى ، فلم أعد أجزع ، ولم أعد

أشفق ... ولقد صدق حُدسى ، إذ سمعت من الساقى أن « المدام »

صاحبة الملهى تلقفتها عند موقف « الترام » وقد عثرت عليها

ترتكن إلى عمود النور وتبكى من حيرة ، ويدها فى يد أختها

الطفلة . فلما سألتها عن قصتها روتها لها - القصة الخالدة العتيدة :

زوجة الأب ، القسوة والحرمان ، أحلام الحرية ، الفرار ...

ثم الطريق .

فطيت «المدام» من خاطرها، وربت شعر أختها، واشترت
لها سميداً وجبناً، ثم جعلت تسوقها شاة إلى مالهها، وهي تعدّها
بالجاه والمال والحزبة كاملة غير منقوصة .

وكان أول ما فعلت «المدام» لكي تضمن بقاء الفتاة في
حوزتها، أن عقدت لها على أحد الأشرار المتبطلين الذين يحومون
حول الملهى، يستنزفون أموال صاحبتهم بحجة حراستها: فحل
أسود، كثر الحاجبين، غليظ الشفتين، ذو أنف أفطس،
يطلق عليه الناس اسم «الحلو». فما ختم بإصبعه وثيقة الزواج
ودسها في طيات جلبابه الحريري القدر. حتى احمرت مقلتاها وهو
يتفرس في الفتاة يكاد يهتمها، وريقه يتحلب، وأصرّ على
أن يجرّ زوجه إلى الكِن الذي يقيم فيه فوق سطح أحد المنازل .
فخلصتها «المدام» من قبضته برق وكياسة، وهي تخزّه مداعبة
في جنبيه هامسة في أذنه :

«لا تسكن أبله ! ألا تبغى من ورائها كسبا ؟ إذن دعها .
فقيمتها الليلة غير قيمتها غدا ! الليلة تساوى ثقلها ذهباً ! دعها
لـ «مدحت باشا» أو «سوسو بك» أو العمدة ذى القفا العريض
والشارب المفتول، يملأ كفيك مالا ... !» .

فتركها «الحلو» على كرهه، وقد تغلبت شهوة المال

على غرائزه .

ومن هنا كانت نظرة الفتاة الخزعة ، وافتتها المستنجدة التي تبحث عن مفر . فما انتهت القطعة الموسيقية التي تصاحب رقصتها حتى استدارت بكيانها كله نحو العازفين لهفي ، مستعطفة . كأنما تتوسل إليهم أن يواصلوا العزف حتى تعود هي إلى الرقص ولا تغيب عن المسرح والأضواء وراء الأستار المسدولة ، حيث ينتظرها « الحلو » وصاحبة الملهى ليقوداها إلى قدرها .

ودَوَّت القاعة بتصفيق حاد ، وتهلل صاحب معربد ، والقوم يطلبون تكرار العرض . فخيَّل إلى أن الفتاة تنفست الصعداء ، وأقبلت لاهثة تعيد حركاتها البهلوانية الساذجة التي تستدر العطف ، دون أن تلتقط أنفاسها . فتصبب العرق غزيرا بين كتفها وعلى صدرها ، ونضحت به جبهتها . حتى إذا فرغت من أداء رقصتها انسدت الأستار بغتة تخفيها وراءها . ثم انقشعت عن فرقة كاملة من الراقصات ينشدن ويتمايلن مع النغمات .

فرجعتُ عن النافذة التي أنظر من خلالها ، وجلست على الأرض مستندة إلى جدار الملهى ، وأنا أضرب كفا بكنف وألعن حياة الليل القاسية . القصة هي القصة أبدا . بكر غريرة طُمُوح ، أو خاطئة صغيرة بائسة . رقصة أو أغنية تعلن بها عن

نفسها كأنما تدل عليها ، فاكترأه ، فتمترغ في الوحل ، فحياة ظلام ،
فذبول عاجل وانطفاء بهاء ، فطرد وتشريد ، فعودة إلى الطريق :
حطام يستجدي الناس - مثلى .

ومرّ في هذه اللحظة بائع خيار . فمدت يدي إليه ، وناديت
دون وعى بحكم العادة :

« إحسان لله الا يحوك الله ! » .

فقذف إلى الرجل الكريم بثلاث خيارات : رحمت أولك
إحداها وأديرها هنا وهناك في فمي الأورد هائته سعيدة ، وأنا
أستشعر استمراء لطعمها العذب ، وأكلت الثانية ، أما الثالثة
فأعطيتها لبائع الفول السوداني لقاء حبات من فوله جعلت أقذف
بواحدة منها تلو الأخرى في فمي ، وأدغدغها جهدي ، وعقلي
يسرح مع الأفكار ... ترى ، ماذا يفعلان بها الآن : « الحلو »
و « المدام » ؟ يصبغان وجهها بالمساحيق لاشك ، ويعقصان
شعرها ، ويعطرانها ، ويهدمانها ، كأنها عروس ليلة الجلوة ، قبل
أن يقدمها صحنا شهيا لشارٍ مليء الجيب .

وفتح باب الملهي الخارجى بعنف على مصراعيه ، ووقف
البواب ينحن نصفين ، زلنى ، ويفسح الطريق الخالى أمام سكير
فاخر الثياب خرج يترنح ، تحيط به شرذمة من الصحاب ، حالهم

ليست خيرا من حاله . وتبعهم « المدام » تدفع الفتاة الجديدة أمامها ، تخزها خفية بين حين وحين تحضها على الابتسام ، على حين تسخو هي بابتساماتها على الجميع متملقة في نعومة .

ويم وجه المخمور وجهه نحو سيارة فارهة كانت تقف إلى جانب من الطريق ، فما رآه سائقها حتى أسرع بها إليه . فتقدم يصعد وهو يتخبط يمينا وشمالا ، تكاد تخذله قدماه ، حتى إذا وطئ سلم السيارة استند إلى بابها ، وراح يقيء ويقيء حتى أفرغ ما في جوفه بصوت كريحه لحنى منه غثيان - فاختلست نظرة إلى الشهيدة المسوقة إلى المذبح ، فطالعت في محيّاها المرمرى البديع هلع قاتل مقرون باشمزاز مميت .

وكانما عز على « البك » ضياع الخمر التي تعب في احتسائها سُدَى . فمسح فمه بكُمّ سترته ، ودس يده المحلاة بالخواتم إلى صِداره ، وأخرج رزمة من الأوراق المالية لم يعدها ، بل قذف بها في وجه السائق وهو يصيح :

« إلى بأغفر زجاجات الشمبانيا ! » .

ودلف إلى السيارة ، واضطجع على فرشها الوثير ، راضيا عن نفسه الرضاء كله . وانحشرت معه بطانته .

فهبّ بائع الفل يحوم حول السيارة يدفع بعقوده داخلها

من النافذة ، ويقول غمازا بعينه :

« القل للفل يا بك ! يا أبيض من الياسمين يا ... يا جميل ! » .

فقهقه « البك » مسرورا ، واشترى منه كل ما عرضه عليه .
فعاد البائع إلى زمرنا متهاالا فرحان يعدّ نقوده .

فزحفت أنا بدورى إلى « البك » أحجل ، ومددت يدى
المعروقة إليه ، قائلة بصوت واهن :

« أعطنى مما أعطاك الله ياسعادة الباشا !... زادك الله من نعمائه ! » .

وكأنما أغراه صوتى الأتوى الخافت ، فاعتدل جهده جالسا ،

وسدد إلى وجهى مصباحه الكهربي الصغير ، وأضاهه فجأة . فما

رأى تخنّتى الشوهاء التى أكل عليها الدهر وشرب ، حتى تراجع

متقززا يغمغم :

« أعوذ بالله ! اغربى يا بومة النجس ! أطمعين بعد فى

هذه الدنيا ؟ » .

فتراجعت عمياء من النور القوى المباغت ، وارتطم عكازى

بالطّوار ، وكدت أهوى لولا أن أسندنى السائق الذى عاد حينئذ

يحتضن ما اشتراه لسيدة من زجاجات الشراب . فضجّ من فى

السيارة بضحك أهوج صاحب ، يستحسنون ما نطق به سيدهم من

حديث ، كأنما هو غاية خفة الدم ورقة الظرف . فقامت المسلم نفسى ،

وأحك ظهري ، علّ ذلك يسكن من الألم النابض فيه سيوفا مسنونة .
وحنا على السائق يعاونني على النهوض ، ودسّ قرشا في يدي ،
وهو يسر في أذني :

« هذا لك من عندي . دورى يا أماه إلى الجهة الأخرى من
السيارة حيث تجلس السيدة الصغيرة . إنها تريدك ! » .

ففعاتُ ما أمرني به في تسال ، حتى إذا رأت الفتاة وجهي
وراء زجاج السيارة فتحت النافذة التي بجانبها ، واختطفت ورقة
مالية من حجر الوجيه دفعتها مسرعة إلى ، كأنما تخشى أن يأخذها
ثانية . أما هو فقهقه مشروحا صدره لما صنعت ، وقد سره
خروجها بما كان يغشاها من انقباض وانزواء .

وهمست الفتاة إليّ بكلماتها :

« أختي الطفلة داخل الملهى ... أنقذنيها بربك ! » .

وشعرت بأناملها مثلجة ، وأنا أتناول منها النقود ، فهفا قلبي
إليها شفقة ، وقلت بحرارة صادقة :

« من عينيّ هذه وتلك ! قسا لأنقذنيها بأى طريقة ! » .

فلما مال « البك » نحوها يجذبها إليه ، ويتحسس ذراعها ،
وقد تشجع يحدوه أمل ، تفهقرتُ أنا مستخفية في الظلام ، على
حين وثبتت السيارة بحملها تطرى الأرض طيا ...

ذهبت من فوري إلى باب خلقيّ لللهي نعرفه جميعا ، وتسلكت
داخلة. لذت بالظلال أتجنب الردهات المنيرة ، وأسترق السمع ملتصقة
بالحوائط والجدران ، حتى وصلت إلى حجرة الراقصات ، وأتاني
صوتهن منشدات من المسرح ، فعلمت أنهن يقمن باستعراض لمجموعتهن .
وكانت الحجرة مضاءة لا أثر لنظام فيها - ثياب مبعثرة على
كل شاكلة ولون ، وعلب للمساحيق والأصبغ منثورة
على الأرض في الأركان وعلى المقاعد . وعلى كومة من ملابس
التمثيل وجدتها - الطفلة - نائمة . ابنة خمس سنوات أو ست .
الطهارة في بُورَة !

لم أضع دقيقة . اختطفها اختطافا ، وأنا أحمد الله على صغر
سنها وخفة وزنها ، ورحت أعرج بها وأحجل تعوقى قدمي
المشلولة ، حتى وصلت إلى الباب الخارجيّ والتصفيق يدوي عاليا
في أرجاء المكان مؤذنا بانتهاء العرض . فانزويت مسرعة بالملك
المستكين في أحضان وراء مصراع الباب ، وجموع الراقصات
صاحبات ضاحكات يهروطن أمامنا إلى حجرتهن .

فاستيقظت الطفلة تفرك عينها وتديرهما حولها تراقص شقتها
السفلى النائة منذرة بخطر انفجارها باكية مستوحشة ، فلم أنتظر
حتى يفتضح الأمر ، وهويت بكفي على فمها أسده ، وتابعت

الهرب . فلما تركنا الملهى وراءنا ، أنزلتها من فوق كنفى ، وربت شعرها أونسها وأصلح من شأنها ، فسألتنى بصوت باك :
« من أنت ؟ وأين «أبلا اعتدال» أختى ؟ » .

فواريت سمختى بخمارى ، لىكى لا ترعبها ، وعالجت خشونة صوتى ، قبل أن أجيبها وأنا أتسم متوددة فى ظلام الشارع :
« لا تخشى شيئا يا حبيبتى . أنا صديقة أختك أرسلتنى لأعيدك إلى بيت أهلك . أتستطيعين إرشادى إليه يا ابنتى حتى آخذك إليه ؟ » .
فصفقت بيديها الصغيرتين ، وتهللت قائلة :

« أحقا نعود ؟ وافرحتاه ! غدا حفلة «سبوع» أخى الجديد ! لقد انتظرت ذلك اليوم ، وتمنيت حلوله ، كى أحمل شمعة مضاء ، وأغنى مع الأطفال و آكل بندقا ولوزا . ولكن «أبلا اعتدال» حملتنى بجر أمس ، وخرجت بى والأهل نيام وقالت لى إننا سنزور قبر أمنا . »
فاستمعت إليها وحلقى يتقلص ، وعيناي تدديان .

وكررت عليها سؤالى عن بيت أبيها ، فقالت بحماسة :
« طبعا أعرفه ... إذا أنت أخذتنى حتى دكان «عم محمد الجنائى» البدال فى حارة «البركة الناصرية» . »

صحبتهُا إلى هناك ، وما وجدت الطفلة نفسها فى الحارة الحبيبة المألوفة لديها ، حتى خلصت يدها عنوة من يدى ، وركضت

تسابق الريح . فوقفتُ ساكنة أنظر إلى خيالها الصغير يغيب
داخل منزل عتيق ، وقلت للهواء عله يبلغها قولي يوما :
« اركضى ... اركضى وُسْعَكَ يا ابنتي ! اهربى ... فزى إلى بيت
أبيك ! لودى بأحضانه ، وادفنى وجهك على ركبتيه ، واحتمى
بذراعيه من العالم الصاحب . وإذا لطمتك زوجته على خدك
الأيمن فأديرى لها خدك الأيسر باسمه راضية - أكرم لك هذا
يا صغيرتي ! إى والله أكرم لك يا بنتى ! » .

• • •

وأهنتى الدنيا أياما معدودات ، رجعت بعدها إلى مكاني المختار
بجوار باب ملهى « المدام » . وما كدت ألقى عكازى إلى جانبي ،
وأسند جسدى المتعب إلى الطوار تحت النافذة السفلى العتيبة ، حتى
طرق سمعى رنين كأس ، وضحكة ماجنة مخمورة ، خيّل إلى أنى
أعرف صاحبها ... فتحاملت جهدى حتى حافة النافذة ، وأطلت
منها ... ليواجهنى ظهر عارٍ ينحسر عنه ثوب حريرى فى لون جهنم ،
ظَهَر امرأة شابة تجالس زمرة من الرجال ، يتكالبون على خطبة
ودها ، وهى تسوسهم بخبرة ومهارة وسعة حيلة . فجمدت مكاني
منتظرة ، حتى إذا التفتت على غير قصد وراءها ضاحكة ، تراجعَت
جاحظة العينين . لاهته . فلم تكن إلا « أبلا اعتدال ! » .

العفو الكبير

لو أتى سمعت هذه القصة من غير صاحبها ، لنسبتها إلى خيال
خِصْبٍ طلق يرتع على هواه ، ينسج ويصوّر .
كنت - أنا وجمع من رفيقائي - في رحلة مدرسية إلى الصعيد
الأعلى . فخططنا رحالنا لنبيت ليلتنا ... وكنا على قارب بخارى ...
عند إحدى القرى المجهولة المتناثرة بين « أدفو » و « أسوان » .
وقفز الملاحون طولا خفافا إلى الشاطئ يثبتون الأوتاد ليشدوا
إليها جبال قاربنا . وجاءتنا أغنياتهم يرددونها من أعماقهم ، فتنتفض
كلماتها حية نابضة . وهددتنا الأهواج لحظات قبل أن نستقر في
مكاننا المختار .

ولبالي الصعيد شاعرية لها سحر يهز الوجدان ، ويمس شغاف
الروح . فما بالك بحفنة من المراهقات تناوشها آمال ، وتشاغلها
أخيلة وردية من رؤى وأحلام ؟ .

تسمرنا مكاننا على سطح القارب ، بثغور مفترّة ، ننظر إلى
الأفق البعيد ، وعيوننا ساهمة ، حاملة ، وآذاننا تلتقط كل نغم ،

وتكَبَّ على كل لفظ تعيه وتحفظه . واصطبغت السماء أمامنا بلون
بنفسجي تشع منه حمرة دافئة ، والشمس تحنى هامتها منحدره نحو
النهر المقدس ، كأنما هي عروس النيل في صلاة أخيرة قبل أن ترمى
في أحضانه تغوص فيها . وهبَّت نسمة باردة بعثرت شعورنا ،
فما أحسنا وما اهتممنا ، ولكن يبدو أن مُدْرَسَتَنَا الأمريكية
العجوز المشردة على الرحلة قد قاست منها ، فقد صفقت يديها في
حدة وإصرار وهي ترتجف ، وصاحت بنا تشدنا إلى الأرض من
أفق تحليقنا :

— « هيا... هيا يا بنات إلى الداخل » .

فلما علت هممتنا نحتجّ ونبتهل ، قالت :

— « إذن ألبسن السترات الصوفية ، فقد يطول بكنّ الوقوف .

فنحن في انتظار ضيف للعشاء » .

فنظرنا بعضنا إلى بعض لحظات ، انقضضنا بعدها على

« مس جونز » ، نوسعها ضمنا وتقبيلًا في فرح وغبطة بالغين ،

ونحن نتصايح :

— « أحقا-تقولين ؟ أنتنظر ضيفا للعشاء ؟ هذا جميل ..

جميل جدا » .

فخلصت المسكينة نفسها منا ، وربتت بوقار شعرها القطني ،

وهي تقول :

« صه ... صه يابنات . ألا شيء من الرزانة ؟ أنتن شبابات -
كبيرات الآن في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر ،
وينبغي أن تلزمن العقل » .

وكنا نعرف بالتجربة أن « مس جونز » إذا ذكرت « العقل »
« الرزانة » فهناك رجال في الجو ! لذا نظرنا بعضنا إلى بعض مرة
ثانية نتشاور في تعجب صامت : أيمن أن يكون هذا ؟ رجل ...
رجال ؟ نرى ، من ؟ لقد زارنا الكثيرون في المدرسة ليلقوا إلينا
بعضاتهم وتجاربهم : رجال علم ، وفكر ، وأدب ... رسامون ،
وموسيقيون ، ورجال دين .. ولكن هنا .. على القارب البخارى ..
والوقت أصيل ... والجو مسحون بالسحر والخيال ... هذا جميل ،
جميل جدا !

تسللت أناملنا دون وعى تتخلل خصلات شعورنا تمسحتها في
تلك الحركة الفطرية ، وأعملنا أسناننا في شفاهانا ندغدغها لتندفع
الدماء تخضبها بلونها الزاهي ، ومنا من شددت حزامها تضيقه ليبدو
خصرها أكثر نحافة ، ومنا من مست أهدابها بأتملة بللتها بلعابها
حتى تتلاصق وتبدو كشيفة ندية .

وأخرجننا من أحلامنا نهيق حمار منكر ، فهورلنا تهافت على

الدرابزين نميل عليه نتناول بأعناقنا ، ونشرب بأنظارنا اللهفي
نحو الطريق الضيق الأعفر المنحدر إلى الشاطئ ، لرى امرأة
محبجة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، مقبلة نحونا ، ممتطية الحمار ،
تحف بها شردمة من الأطفال ، شديدو السمرة ، ناصعو بياض
الأسنان . ولا أحد غير ذلك .

فانخذلت أذرعنا لاحياة فيها إلى جنوبنا من شدة خيبة الأمل ،
ونكسنا رؤوسنا ونحن نعود أدراجنا إلى الداخل ، وقد عوانا على
الاعتذار بصداع أو نحوه لنهرب إلى حجراتنا في أسفل القارب ،
وتنجو من مجلس ممل سقيم ، كل قوامه « مس جونز » العجوز
وضيقها التي لا تقل عنها عمراً بحال ... إن لم تزد .

وَأَكَمَّ أَدَهَشْتَنَا مُدْرَسَتُنَا الْأَمْرِيكِيَّةَ الطيبة وهي تهول مضطربة ،
تقع وتقوم ، تستقبل بترحاب بالغ واحترام شديد الضيفة التي
ترجلت عن حمارها بخفة ورشاقة ، ولم تعفها ملابسها التي تصل إلى
كعبها . وأدخلتها « مس جونز » إلى سطح القارب ، حيث وقفنا
نحن إلى جانب ننتظر ما يكون ، وأجلستها في مكان الصدارة منه .
وللتوا أحاطت بها تجلس عند قدميها شردمة الأطفال التي تصحبها ،
والتي لا يكف أفرادها عن الابتسام ، فتبدو أسنانهم ناصعة البياض
وسط سواد بشرتهم .

وأشارت إلينا « مس جونز » أن نقرب . فراحت كل واحدة منا نخز أختها تدفعها برفقها لتتقدم قبالتها . فرمقتنا « مس جونز » بعيون غاضبة ، وقد عقدت ما بين حاجبيها ، وزمت شفيتها في خط رفيع ، مهددة :

« هيا يا بنات . أقبلن للسلام على « ست تفيده » .

فوضعنا مكرهات أكفنا في الكف الصغيرة المبسوطة لنا ، ولم نكلف أنفسنا مشقة هزها ، أو حتى الضغط عليها ضغطا خفيفا . ثم تبادلنا النظرات نتشاور في أمر فرارنا ، والنجاة بجلودنا مما يراد بنا .

فأسرعت « مس جونز » تقول ، وكأنما شعرت بما يدور في أخلاذنا :

« لتتخذ كل واحدة منكن مجلسا مواجها ل « ست تفيده » ، والقوم هنا يدعونها « ملاك الصعيد » ولتفتح أذنها جيدا وتعي ما سترده علينا الآن متفضلة من تاريخ حياتها المجيد .

فأطعنا نغمم وندمدم ، ونحن نتهد بجرقة ، وندير عيوننا في صمت واسترحام نحو السماء ، شهيدات مسوقات لا حول لهن ولا قوة . لم يكن يبدو هناك ما يبشر بأمنية شائقة . . . ولم نكن بعواطفنا المشبوبة وخيالنا المجنون نقبل أقل من « شائقة » وصفا

لليلة صافية كليلتنا تلك . ولكن عندما ارتفعت يدا الضيفة إلى رأسها في حركة رشيقة متماوجة لتحل نقابها ابتسما آملا ، فإن نسمع لها وبيننا وبينها هذا الستار الأسود الثقيل ، وسنستطيع على الأقل أن نتأمل قسماتها ، ونرى أسنانها ، ونعرف هل تواظب على غسلها مرتين في اليوم كما تأمرنا « مس جونز » أو لا ؟ ثم هناك شفتاها ... أيضا . وكنا نحب دائما أن نقارن بين أى شفاه نراها وبين شفاه أحب الممثلات إلينا . وهذا في ذاته تسلية كبرى تلهينا عن متابعة الحديث إن كان مملا . وهكذا تبادلنا البسمات ، وحبسنا أنفاسنا ترقب سقوط النقاب .

وقد سقط . وسقطت معه قلوبنا تتمرغ رعبا وفزعا بين أقدامنا ؛ ففنا من صرخت ، ومنا من لطمت فمها بكفها تحبس صيحة نكراء ، ومنا من دفنت وجهها بين راحتيها تنشج بعنف ، ومنا من تسمرت مكانها تحماق أمامها مشدوهة ، مغطسة ، وقد سقط فكها وجحظت عيناها من شدة الرعب .

فقد كان الوجه الذى طالعنا - أو قل السحنة - سحنة شيطان : العينان بلا أهداف ضيقتان أشد الضيق ، والأجفان منتفخة محتقنة ، والأنف - أو كان هناك أنف ؟ لقد تأكل ولم يتبق منه ما يدل عليه سوى منخارين فاغرين كمنخري هومياء ، وكان تحته

- أعنى الأنف - ثغرة معوجة مفترقة أبدا، تستبين منها أسنان
سوداء كالحة - أغلب الظن أنها الفم . أما الذقن فلم يكن له أثر ،
اللهم إلا قطعة من اللحم كقطعة عجين خبصتها يد طفلة لاهية
ووضعتها كيفما اتفق في الوجه . والأذنان ... لا ، هي أذن واحدة
مكشاة وملتصقة بالرأس ... والشعر ... رماد أو عهن . والمنق ...
مغضن معروق . والجبين ... والوجنتان ...

قفزت عيوننا مجنونة تسيح في أرجاء المسخ الذى هو وجه
« ست تفيده » ، وقد جلست فى هدوء ويدها على حجرها تضم
إحداهما الأخرى فى اضطراب وحلم . أما الأطفال السود فلم
يطرف لهم جفن ، ولا حولوا عنها عيونهم وهم ينظرون إليها فى
حب وتعلق شديدين ، ينادونها بتحنان بين الفينة والفينة :
« ماما ملاك ! ماما ملاك » !

ولمليت « مس جونز » شتات نفسها ، وقالت تعالج الابتسام
تحفى اضطرابها ووقع المفاجأة عليها :
« لقد سمعتُ عن « ست تفيده » وتضحياتها التى هى
كالأسطورة ، وسخائها المنقطع النظير ، وأعمالها الخيرية الخالدة فى
تلك القرية المتواضعة المجهولة وأنا بعدُ فى بلادى ... هناك فى
ولاية « دالاس » . كنت إذا قابلتُ أحدا من بنى قومي ، رجلا

كانوا أم نساء ، وكانوا عاندين من رحلة إلى «مصر» وسألتهم
عن الأهرام والنيل والآثار ، أجابوني بما يشلج صدرى ، ويشير
رغبتى قوية فى زيارة تلك البلاد الساحرة ، ثم لم ينسوا أن يضيفوا
فى ختام حديثهم : «ولكن أخلد من قابلنا وأروع ما سمعنا هى
«ست تفيدة» وقصة حياتها ... هناك ... بعيدا ... فى أحضان
الصعيد الأقصى» .

وتنحنحت «مس جونز» تختلس نظرة جانبية إلى ضيفتنا ،
كأنما تدعوها إلى الكلام . فلبت هذه الدعوة دون تردد ، وكأنما
اعتادت مثل تلك الدعوات .

قالت وهى تلمح على رأس جعد لطفل استكان جنبها :

«لست صعيدية كما قد يبدو للأذهان ، بل أنا من مواليد
«القاهرة» أقمت فى حىّ «الزمالك» منذ ولادتى إلى أن بلغت
الثانية عشرة من عمرى ... وكنت ذات جمال باهر...» .

وأمسكت لحظة ، حتى فرغنا من ضحكنا ، وفرغت
«مس جونز» من زجرنا ، ثم استطردت وكأن لم يحدث شئ :
«... ذات جمال باهر يخلب الألباب ، جعل سيدات الحى
- وكنت أزورهن بصحبة أمى - يولعن بالتغزل فى وتدليل
ويتنافسن فى خطابى لبيهن ، ويبدلن فى سبيل سبق الفوز بى

النفس والنفيس ، وأنا لم أتعد بعد تلك السن الخضراء . فلأنى
الزهو والغرور ، حتى نأيت بجاني عن رفيقائي في المدرسة ،
وعزفت عن مخالطتهم . فلما انتقلنا إلى « المعادى » في « فيلا »
اشتراها والدى وسجلها باسمي - دون إخوتي - ثبت لدى ، بل
تغلغل في أعماق روحى ، الشعور بما أمتاز به من قوة ساحقة
وسلاح طاغ بتار . فازددت تعلقا بنفسى ، وأصبحت والهة
بجهالى ، مغرمة ، مدفنة .

ولم ألبث أن تركت الدراسة ، فقد خفت على عيني الصافيتين
من الإجهاد . فلم تصدنى أمى عن غيى ، ولا ردعنى أبى عن
طيشى . كانا فى نشوة بينوتى ، مسحورين ، مأخوذىن فصرت . ملكة
البيت التى يخضع لها الجميع عن طواعية - أو مكرهين . ولكم
سلقت إخوتى البنات بلهب من السخرية ، وشهّرت بهن فى كل
مجلس ، لقلّة نصيبن من الملاحه ، مما يذل النفس ويذى القلب .
أما إخوتى الشبان فسخرتهم عبيدا لخدمتى وقضاء طلباتى . والويل
كان لمن يتباطأ ... ولا أقول يرفض أو يتردد . كنت أثير عليه أبى ،
فيمسك عنه حنانه ومعونته المالية ... بل ينبذه من زمرة المرضى
عنهم حتى يعود متذلا كسيرا .

وأقحمت نفسى فى مجتمعات وحفلات تضم من يفوقونى عمرا

يعرّاحل بعيدة . فأذهلت الجميع بنضارتى وبهاء جمالى ، وتهافت على الرجال فى جنون واندفاع ، ذبابا يترامى على صحن من الشهد البرئ فيه هلاكه ، وقد استحال عليه الفكك من برائن الموت اللزجة الحلوة ! هكذا كنت . لا ينجو من نعمتى وظرفى وبرائن جمالى رجل

تطلع إلى آملا أو طامعا . فانزوت النساء حسيرات يقرضن الأنامل يدمينها غيرة منى وكندا ، وقد خبا جماهن إلى جانبي ، وانظفاً بريق عيونهن . فألهب هذا دماى ، ووخز شياطينى ، وأوغر قلبى الطاغية . فلم يعد هناك ما يطربنى أكثر من زوج هجر زوجته وأولاده من أجلى ، أو شاب فصم خطبته أو جافى حبيبته .

فأطلق الناس على اسم « الشيطان » . وبرغم ذلك لم أتبدل مرة . فقد بخلت بنفسى على كل خلق الله دون استثناء .

كنت أنتشى بالانزال ، وأنا أعرف نتيجه سلفا . فألزم مكانى فى حفل أو مجلس لا أفارقه ، مرفوعة الرأس هادئة ، كأنما أمن على الكون بوجودى ، على حين يتهدل ذيل ثوبى الفاخر الثمين حولى وعلى جوانب مقعدى فى تئنيات سخية كالإطار حول صورة مجسمة للجمال السابى . وأتطلع من عليانى ذات اليمين وذات الشمال أختص هذا بنظرة ، وذلك ببسمة ، وثالثا بإيمامة ... ولا شىء غير ذلك . فتضطرب القلوب ويحن جنونها ، وتطيش العقول

وتتخبط ، وأبتسم أنا بجذل أرقب كيف يتصرف أصحابها ، وقد
حلّ عقالمهم ، فنسوا من حولهم ، واندفعوا كقطع من الأغنام
تنساب مزاحمة يدعوها زامر خفى ...

ثم حدث أن أُعْزِمَ بي شابّ إلى درجة الهوس . وتمادى في
حبّه وتهوّر في تشيبيه ، حتى كان يبعث إلىّ مع شروق كل شمس
طاقة من نادر الورد يأتي به من موطنه « هولندا » في طائرة تقوم
به خصيصا بعد قطفه . فإذا ما انتصف النهار سمعت صوت بوق
سيارة أمام بيتنا ، وما يلبث الخادم أن يأتي إلىّ حاملا صناديق
من الحلوى وزجاجات العطور ، فأشير إليه بأتملة - وقد أتخمني
الغرور - لسكى يهيلها على أخوات لها في ركن تكدّست فيه
أكواما . ويفنى الفتى نهاره وشرطاً كبيراً من ليله محمّوماً ،
ولهان ، لا يستقر في مكان ولا يهدأ له حال . وقد أخرج
متهادية إلى شرفة حجرتي ثواني يكحل برؤيتي عينيه ... وقد
لا أخرج . وقد أشبك إحدى وريدانه بدبوس فوق صدرى ،
وأقبل دعوته للعشاء أو للزهوة ، وقد أذف بالطاقة كلها في وجهه ،
فتقص الرءوس الفواحة الزكية وتتناثر ، فأسحق بقدمي
وريقاتها المخملية ؛ وهو ينظر إلىّ متألماً دهشاً لا يعرف أبداً
ما أغضبني وما أرضاني .

وكان وحيداً أمه ، مات عنها أبوه وهو ما زال يتعثر في مشيه ،
وخلف له تجارة ناجحة . فبذلت الأرملة التي لانصير لها من دماها
ودموعها لتحفظ بالثروة وتنميتها لتيمةها الصغير ، ثم ماتت
أخت لها عروس وهي تضع . فجاءها زوجها بالوليدة مغمضة
العينين قد كورت قبضتها تمصصها بنهم ، واستحلفها بالغالية التي
ذهبت أن تسكفل بطفلها . ثم اختنى . قيل إنه تزوج ، وقيل
إنه هاجر . لم يتأكد لها الأمر . كل ما عرفته أن عبها تضاعف ،
وأن شبابها ولى قبل الأوان ، حتى ترعرع «مدحت» وشبت
«صفاء» عن الطوق .

ونشأ معاً متحابين ، يحدب الفتى على ابنة خالته ، وتتفانى تلك
في خدمته وتلبية مطالبه ، والآن ترقبهما بقلب راض . فلما آتم
دراسته وتسلم تجارته تنفست أمه الصعداء ، وعقدت خطبته على
«صفاء» حتى تطامن على ربيبتها في كنف زوج محب محبوب .
وساد الأسرة الصغيرة هناء ، ورفرفت عليها سعادة ، حتى لمحنى
«مدحت» في إحدى السهرات ، ففسى خطيبته ، وحل أناملها من
خول ذراعها ، ومشى إلى كالمسائر في نومه ، وخلفها بين الناس
حيرى محرجه تفرك كفيها وتشرق بدموعها .

وأهمل « مدحت » تجارته ، وراح يطاردني ويفدق عليّ الخلي
والمجوهرات بغير حساب . واشترى باسمي حصانا جرى
في السباق ، وخصني بمكسبه ؛ فلم يلبث الدائون أن ضيقوا عليه
الخناق ، فاضطر إلى شهر إفلاسه ، وحاول الانتحار مرتين
أسعف في كليهما . وتنهت إلى أخباره ، فهززت كتفي
المرمرتين العاريتين ، وقلت للجارية التي كانت تدلكهما ساعتئذ
بدهان خاص :

« ومالي أنا؟ » .

ونسيته . قذفتُ بذكره إلى ركن مظلم قصي من عقلي .
ومرت أيام . وانطوى عام ، وأشرف عام جديد .

وكنت خارجة ظهرا من عند الحلاق ، بعد أن صفت
شعري الكسنداني السخي بطريقة مبتكرة أبرزت مفاتي وكستني
بهالة من البهاء استعدادا لسهرة رأس السنة ، عندما اعترضت
طريق امرأة حسبها شحاذة لهلاهيلها واعتفارا سخنها . فما توقفتُ
ثواني متقرزة لأزيحها عن طريق ، حتى قذفتُ وجهي بغتة بسائل
كان في زجاجة تتججتها بسرعة البرق من عنها . فصرختُ - بل
قل زارت - متلوية والمادة الكاوية تشوي لحمي . فحملوني

إلى المستشفى ، وبذلوا أقصى الجهود لإنقاذ حياتي . فنجحوا ...
ولكن بعد أن مسختُ شوهاء تعافها العين . . .

وصممت « ست تفيده » لحظة ابتلعنا فيها ريقنا بصعوبة ،
ونحن تبادل نظرات جزعة مشفقة ، ولا نجرؤ على أن
نفتح شفاهنا بحرف . فاستطردت هي تلتقط الخيط من
حيث تركته :

« ولقد قبضوا على المرأة ، وجاءوا بها إلىّ لأتعرّف عليها ، وأنا
ملقاة كالخرقة وسط ضمادات لاتستين منها سوى عينيّ .

نظرت إلى المرأة . لم يخطئوا . كانت الجانية . لكني
- للعجب - لم أشعر نحوها بأى بغض أو حقد . ماذا دهاني ؟
ماذا حدث ؟ لست أدري . كل ما أدريه أني استلقيت دقائق
صامتة لا يبدو عليّ شيء ظاهر ، على حين اشتد الصراع
وعتّف في صدري بين الشيطان الذي لبسني جميلة فاتنة وبين
روح صافية جديدة غريبة عليّ تسللت إلى دمائي كأنما طهرتها
النار الكاوية . وراح صدري يعلو ويهبط من قسوة النزال
وبصرى عالق بالمرأة . وكأنما خشي شيطاني الخذلان ، فقد
استصرخني محرّضا يستفزني بفحيحه وهمساته ، فما اهتززت

وماليت . وتركت الروح الجديدة تغشاني كشعاع الشمس
تضيء أرجاء نفسى المظلمة العفنة . وكانت آلامى فوق
طاقة البشر ، لكنى استعذبتها وتقبلتها فى صمت ، لا أنن
ولا أتوجع .

فكأنما استبطأنى الضابط الذى صحب المهمة ، ليأخذ
أقوالى ، فقد مال على يقرب أذنه من فمى :
« أتستطيعين النطق أم لا ؟ » .

فلما هزرت رأسى أوكد قدرتى ، قال :

« لقد قبضنا على هذه المرأة تحاول الزوغ من مكان الحادث .
لكنا فى شك : هل هى المجرمة ؟ أنظرى إليها جيدا . ستكون
كلمتك الفاصلة .

فقممت على مرفقى أعالج الجلوس ، فأسرعت إلى ممرضتان
تمنعانى . لكنى أصررت ، فاضطرتا إلى الخضوع . فلما طفقت
أحل الضمادات عن رأسى ألقنا بنفسيهما على تقييدان ذراعى
إلى جانبي فدفعتهما جانبا بقسوة ، ورحت أقاومهما بقوة خارقة .
فهرولتا إلى الخارج تصرخان فى طلب نجدة . فحشيت إلى الباب
وأغلقتة خلفهما يفتحاه ، ثم استدرت نحو الضابط والمرأة

ورحت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ، فلما سقط آخر شريط مخضب عن رأسي ، صرخت المرأة وانكفأت على نفسها تتمايل وتنشج . أما الضابط فقد رأيت من تقلصات وجهه ونظرة عينيه ما صرت عليه من بشاعة فابتسمتُ - لدهشتي وعجبي ... ابتسمت في استسلام ، ومشيت إلى المرأة الموضوعه على منضدة صغيرة ، وانحنيت عليها أنعم النظر في الحروق ... والمزق ... وبقايا منشور شعر كالتراب .

وعلا الضرب على الباب ، والدق من الممرضات والأطباء الذين تجمعوا وراءه . لكنني أصممت أذني عنهم ، ولما حاول الضابط فتحه لهم أشرت إليه ضارعة أن يتمهل هنيهة ، ثم قلت له :

« إليك يا سيدي قولي الذي جئت من أجله : لم أر هذه المرأة في حياتي قبل اللحظة ! أطلقوا سراحها » .
وسقطت مغشياً عليّ .

ولما شفيت ، بعث الحصان ، والكلاب الخمسة النادرة ، والسيارة المتكورة التي أهدانها «مدحت» ، وملبت كل الحلي والمجوهرات وعقدتها والنقود في مندبل ، ثم ذهبت إلى بيته حيث دفعت بها بين يدي أمه ، وأنا أقول :

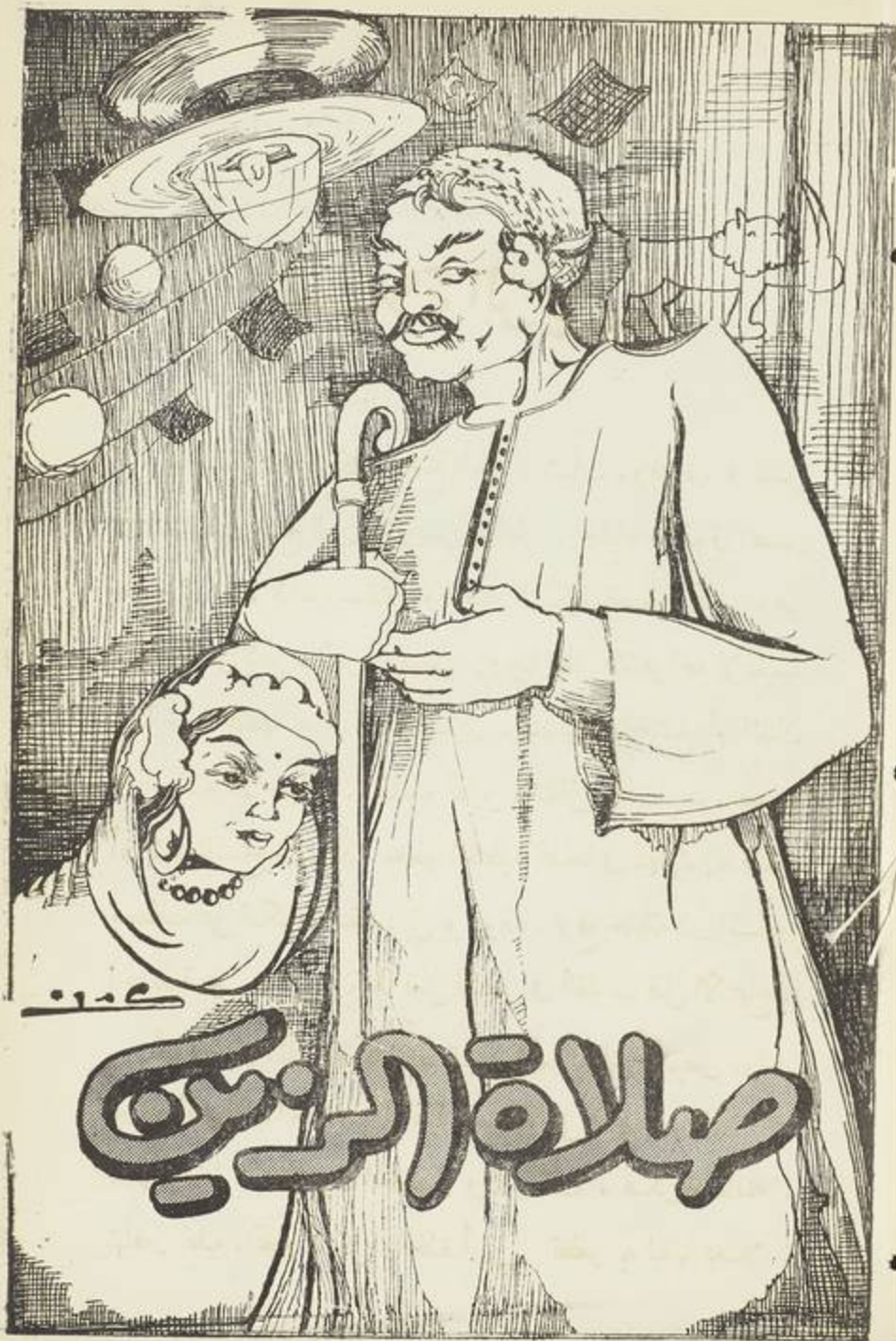


... رحمت أرفع الضمادات بكل ثبات وهدوء ...
فصرخت المرأة وانكفأت على نفسها تهابيل وتنشج ...

« هاك سيدتى ... هاك ما سلبت ابنك . يعيها وابدءوا معا
حياة جديدة ... فهى أموالكم . وزوجيه من « صفاء » فهى خير
رفيق ، وأوفى أنيس ... ليبارككم الله ! » .

فالتفوا حولى ... « مدحت » وأمه و « صفاء » ... يقبلوننى
ويكون ، وأنا أستدير لأغادر الدار . وعلى عتبة الباب همست
فى أذن أمه وأنا أحتضنها :

« لقد شفيتِ روحى فشكرا ... شكرا على ما فعلتِ بى ! » .
نعم ، فلقد كانت هى الجانية ...



سهلة التزيين

صلاة الزين

«مدبولى ، هذا كان شَجِيعَ الحَيِّ . شباب ، وفتوة ، وتناسق
فى القسما ت يهبج العين ، ويسر الخاطر . جلبابه مشقوق الصدر
عن وشم أسد شاهر سيفا ، وطاقته الشبكية الصغيرة تميل بزهو
وخيلاء عن شعره الغزير المنمق . وينتا تطل فلة فواحة لا تغيب
أبدا حيث علقها فوق أذنه اليسرى ، تندس لفاقة تبغ أو اثنتان
إوراء أذنه الأخرى . لمشيته تمايل وتثاقل كأنما ينوء بعوده
أو يثقله المديح والتودد . يخطو الخطوة شحيجا فى تمهل ، إله صغير
يتعطف على الكون بتنقله ؛ بل بوجوده . لوقع حذائه ذى المسامير
الحديدية على حوافيه رنة لها فعل السحر فى القلوب قبل الأسماع .
أما الصبايا الملاح فكنن يعشقنه ، وأما أمهاتهن البيض ذوات
البراقع الهفهاقة والعصائب الزاهية المعوجة على حاجب ، والملاءات
اللاتى زمنها بخت حول الخصور والأرداف ، فكن يتملقنه ،
يتهاقن عليه ، تحاول كل واحدة أن تظفر به لبنتها بعلا .

وأما الرجال فقد عقدن له لواء الزعامة منذ كان في الخامسة عشرة من عمره ، وليس منهم من لم يذق لطفة من كفه الضخمة ، أدارت الدنيا رأسا على عقب أمام ناظره ، كأنما رفسه حصان .

وكانت « قهوة اللطافة » تقع على ناصية الحارة ، وقد كدس فيها صاحبها - « المعلم أبو العلا » الكرامى الخيزرانية ، والأرائك الخشبية المبرقشة ، والمناضد الصغيرة الرخامية السطح ، وجاء فيها بأباريق ضخمة نحاسية ذات جلاجل ، وأكواب مزخرقة بورود خضر وحممر وصفر ، وعلق على وجهها مذيابعا يجلجل في الحى . فما يهل « مدبولى » بقامته المديدة وكيانه الفحل يستد باب « القهوة » ، ويدور بعينى صقير في أرجائها ، وهو يذق بهراوته الأرض بين لحظة وأخرى دقائق تصرخ « نحن هنا » ، وعلى وجهه الوسيم القامى تتلاعب بسمة متحدية - حتى يهرول « المعلم أبو العلا » وصيبانه يفركون الأكف ، وينحنون ويفسحون الطريق مرحبين به وبعبصة المتعطلين التى تحف به . فيسير « مدبولى » مترنحا تسكره عظمة ، إلى أريكة خصصت له فى صدر المكان ، عليها وسادة فستقية ، بسطت أمامها على الأرض فروة كبيرة ممشطة ومخضبة بالحناء .

ويصرع الشجيع نهاره ، يكرع مقادير من القرقة والشاى ،

أو الخروب وشراب الليمون والشعير ملء قنر ، وهو يلقم فاه قطع « البسبوسة » و « الهريسة » يأتيه بها متبسماً متقرباً زُلْفَى - كأنما يسأل إحساناً - « عم حنفي » بعد أن ينتقيها تنزّ بالسمن والشراب ، من فوق صينيته التي يحملها على رأسه ويدور يسترزق من بيعها . ويقف بائع الأطعمة الجوال بعربته عند مروره أمام القهوة من تلقاء نفسه ، ويدفع الضريبة اليومية طبقين مترعين بـ « الكشرى » و « المكرونة » يلحقهما « مدبولى » بـ « البسبوسة » . ثم يلتفت وهو بعد يمضغ ويتشددق إلى طبق « المهلبية » الضخم يناوله إياه بائعها . أما أرغفة الخبز المقمر الساخن اللذيذ فلا تسل عن عددها ، لأن « الحاج عبده » الفران يرسلها في سلة مغطاة بفوطة . ويزعق « مدبولى » - وأشداده محشوة بالطعام تكاد تتمزق - يسب ويلعن رسول « المعلم ضبعة » الجزار ، ويقذف في وجهه بفخذ اللحم النيئة التي أتاه بها ، فيلتقطها المسكين وهو يرتجف ، ويتقهقر يغيب ساعة وبعض الساعة ، ثم يعود بها ثانية مطهورة ومهيأة بالتوابل والبهار ، وفوقها اعتذار « المعلم ضبعة » واستسماحه . فيعمل فيها « مدبولى » أسنانه وأصابعه نهشاً وتمزيعاً ، حتى يمتلئ : فيلقى ببقيتها إلى أتباعه ، ويتكئ برفقه إلى ظهر الأريكة ، وهو يتجشأ بصوت كالرعد . فيسرع

الحاضرون يهتفون :

« صحة وعافية على بدنك » ! .

فيرفع يده مثاقلا يربت صدره ، ويلوح بذراعه ناحية المذراع . فإذا كان مغلقا أداره « المعلم أبو العلا » ؛ وإذا كانت النغمات تنطلق منه صاحبة مرحة ، أغلقه على الفور .

ويتوقف أهل الحى فرادى وجماعات فى طريقهم إلى أعمالهم يخيئون شجيعةهم ، ويدسون فى يده « المعلوم » ، وويل لمن يتأخر أو يتهرب أو يحاول زوغانا من الدفع . فهناك حادثة المطربة بنت الحى التى أحيت مرة زفافا بلغ « مدبولى » أنها جمعت فيه قطعا فضية وزهية كثيرة مما ألقته أم العروس على ابنتها ساعة الجلوة . فأرسل إليها من اعترض طريقها يوما يسألها وهو يشير إلى العود الذى تحمله لتضرب عليه ، وهى تغنى :

« أأكسره ، أم أكسر دماغك ! ..؟ »

فهزت كنفها ومضت عنه ، ليعثروا عليها الليلة التالية فى أحد الأزقة البعيدة المظلمة جثة مهشمة الرأس . واستنفدت الجريمة بحوث الشرطة ، واستنزفت جهود رجال النيابة ، ثم قيدت ضد مجهول ، وأهل الحى صم ، بكم ، عمى . حتى أهلها كتبوا لوعتهم فى قلوبهم ، كيلا تكون هناك من بينهم ضحيتان !

ومع ذلك كان معبود النساء . يهوين بطشه وجبروته . ويذبن

صباية في نظراته الفاجرة إلى نحو رهنّ وصدورهنّ ، وتطرب منهنّ
الأذان وتنتعش القلوب ، أثناء مرورهنّ أمام القهوة ساعة
الأصيل . وهو جالس فوق أريكة الشرف على الطّوار . يبسط
كفيه يصفق طويلا ، ويشيعهنّ بتحيته المألوفة :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! »

وقد تضطرب إحداهنّ وتتعثر في ملاءتها . فيصيح وهو
يهبّ لمساعدتها :

« اسم الله ! » .

ويقبض على ذراع بضّة ، أو يحتك بفخذ ، غضة حتى تلهلم
المرأة نفسها : فيقول لها وعينه في عينها :
« أموت أنا ! » .

ويشيعها بصفقة أخرى طويلة من راحتيه الكبيرتين :

« صلاة الزين ، صلاة الزين ! » .

وكان يعيش وحيدا ، تنقاتل النسوة على خدمته ، وغسل
ثيابه ، وملء القلتين وتبخيرهما ، وتنظيف حجرتة ، وتسوية
فراشه . هذا على الرغم من زوجاته . إى والله - زوجاته : أربع
من أجمل بنات الحى ، يتامى كلهنّ ، وليس في الوجود من يدس
أنفه في أحوالهنّ ومعيشتهنّ . فألحقهنّ « مدبولى » « بيت » - وقيل :

باعهن - يعملن ويُعدن بالكسب إليه . وقد تجرأ شيخ وقور ذات
مرة ، وسأل « مدبولي » متوددا :

« لم يخرجن ويتكسبن يا « مدبولي » يا عترة الحى ؛
وخيرك كثير ؟ » .

فضرب المنضدة التي كانا يجلسان إليها ضربة كادت تقصمها
نصفين ، وصاح محتدا :

« كيني ... مزاجي !.. صنف النساء صنف لثيم ! اكسر أنفه
وأرهب بدنه بالعمل ، يأمن الرجل منا شره . آه - أسألوني أنا ! ، -
وكانت تزوره زوجاته ، لكل منهن ليلة في الأسبوع ، فتأتى
متافعة بعتمة المغرب منهوكة القوى ، مهیضة الجناح ، وإن تأنقت
وتكحلت وتعطرت . فتمشى جنب الحوائط في الحارة منكسة
الرأس حتى تصل إلى دار « قانها » . فتبيت ليلتها ، وتعطى زوجها
ما حلت من نقود وفاكهة ، أو ما جلبت من هدايا : جلباب
حريري ، كوفية ، منديل . وتنسل عائدة إلى « عملها » مع أول
خيوط الفجر ، لا تجالس جارة ولا تحي جارا من قريب أو بعيد .
وكانت الثورة تضطرم في صدور الإمام وهن مستكينات ،
كل لظمة على خد إحداهن كعود من الحطب يخز النار المتأججة
يزيدها اضطرابا . تكشف من ذاقت عصا « مدبولي » في ليلتها

عن كثفها وغذيتها وهي تشرق بالنحيب ، فتواسيها الأخریات
وتمتزج دموعهن : واحدة مشفقة لذكرى ما حل بها نفسها يوما ،
وأخرى ناقة على دنياها تسكى ضيقا وغيظا ، وثالثة متشفية
- أليست ضررتها ؟ - تعنصر قطرات من الدمع بحاملة .

ثم هربت « توحيدة » . وحبست زميلاتها أنفاسهن يترقبن
ما يحل بها في فضول وحسد ، شأن من يضمر أن يخذو حذوها .
وظالما نصحن لها بالتعقل والاصطبار على القسمة والنصيب . ولم
تسكن النصيحة دائما خالصة لوجه الله ، وإنما نأوشهن خوف أن
تنجح في الإفلات وتنجو بنفسها . وربما لا يسعدهن الحظ مثلها ،
فيدشرين دونها العلقم إلى آخر قطرة في الكأس .

وقد صدق حدس البائسات ، فكان الذنب الذي أنزله بهن
« مدبولى » هو السجن ، والرقابة الشديدة ، و« العمل » المضنى
يستنزف دماءهن في ذلك « البيت » - حيث الحقهن - على حين
يتسلم هو المرتب من « ذوى الشأن » . ثم جاء من همس
في أذن كبيرتهن ، وابتسامه كرهية ذات مغزى 'تعوّج'
فه إلى جانب :

« توحيدة ... تعيشين أنت ! » .

ومرت ساقية الأيام تجررهن في عجلتها ، دوابّ يأخذ برؤوسها

الدوار ، فلا تملك إلا الاندفاع في المدار .
ثم ماتت إحداهن - « بدرية » . ذوت ، وذبلت ، وانهرت
عودها . وكان القوم يتحسرون عليها ، ولا يملكون إلا هز
رؤوسهم خلفها أسفا ، وهم يرونها في كل زيارة لها إلى الحى
وقد سَرَّحها مستأجروها تقززا - تذوب على مر الأيام وتسعل
سعالا خشنا لا يرحم ، يهزها هزا . فترتكب إلى جدار تلتقط أنفاسها
وتبصق في منديل تطويه مسرعة وتدسه في عباها ، وهى تلتفت
حولها . ثم تستأنف سيرها تلتقط « عملا » هنا أو هناك .
ونفض « مدبولى » يديه بعد دفنها ، واستعد الحِطْبَة وزواج
جديد . فنشطت الأمهات البيض ذوات الملاءات الهفهاقة .
لكن لم يعرهن الرجل التفاتا . البنات نضرات كالورود ملفوفات
العود ، ناعمات الشعر ، قد ذهبن إلى المدرسة و « المعلة » ،
وأجدن تفصيل الثياب وشغل الإبرة وفك الخط . ماذا يرضى
« مدبولى » أكثر من ذلك ؟ ليست زوجاته الحاليات - ولا الأربع
اللاتى سبقتهن - بأجمل من « فردوس » ، و « سوسن » ، و « ثريا » .
من تمر على باله ؟ ماذا يدور بخاطره ؟
والغريب أن الأمهات لم يتشاءمن به ، ولا أجفلن من تاريخه
الحافل . بل لم يخشين على فتياتهن من الحياة فى كنفه . ماله ؟

اسم النبي حارسه... رجل تمام - طول وعرض وفتوة ! رجل
ملء ثيابه ، يسيل الخير بين يديه ، ويلعب بالنقود لعبا ! والرجل
عيه جيهه !

كانت كل واحدة تطمع بل تشعر عن إيمان أن بنتها هي
المحظوظة التي ستكون أسعد حالا من غيرها معه ، لأن الأم
وأقاربها سيضطرونه أو يتحايلون عليه بطريقة ما - لن يعدموها
ساعتئذ - كي يعيش وعروسه بينهم فيتحول كل الخير من هبات
وهدايا إلى يتهم . خطة سهلة ساذجة . وهكذا شهدت الأسطح
مؤتمرات الأمهات والحالات والعمات يقبلن الأمر على شتى
وجوهه ، بين أكل الخس وتسالي اللب ... لكنه - «مدبولى» -
لم يكن من البله بحيث يقع في الشرك . هو زاهد إلا في
« المقطوعات من شجرة » ، ولن يجيد عن خطته . لا أم تشاكسه ،
ولا أب يضايقه ، ولا عم يناقشه الحساب .

بيد أنه حاد . وطمس الحب - لأول مرة في حياته الزاخرة
بالنساء - على ناظره ، ورشق سهامه في طود حرصه لينساب
حذره من الثغرات قطرة قطرة .

أحب « زينات » - طفلة دون سن الزواج ، كالرمح اعتدال
قائمة كأنما صبت في قالب رائع . ترفل لاهية في أربعة عشر ربيعا

من صحة متفجرة : وجه صبيح نضر ، وأعطاف متناسقة تتماوج في مشيها ريانة ، كشوى . وكانت تعيش ووجدتها العجوز غاسلة الثياب في حجر مظلم في أسفل منزل يتكئ إعياء على جيرانه ، يكاد المرء يسمع لهائه وتقصّف ضلوعه وهو يتماك ببسالة وجلد ، كيلا يهوى جنة هامدة .

ولقد رأى « مدبولى » ، « زوبة » أول مارآها تتضارب في الحارة مع يَفَع غازلها في الطريق بوقاحة ، يضيق عليها الخناق ، حتى أوقع عن كفها صحن « المخلل » الذى كانت تحمله للغداء . فوقف « مدبولى » يرقب التّمرة الفتية بإعجاب ودهشة ، حتى إذا انقضت تضرب الأرض برأس الغلام ، وتبرك على ظهره ، تكاد تزهب روحه ، قبض على ذراعها من الخلف ، ورفعها وهى تسب وتركل الهواء بعيدا عن الفتى الذى أطلق ساقه للريح ، دامى الأنف ، متورّم الشفتين ، تحيط بعينه اليسرى هالة بنفسجية . أماهى فلم يصبها سرى انزلاق منديلها عن شعرها السخى ، فانسكب في ثورة عارمة متدفقا على كنفها .

وأطلقها « مدبولى » ، وتراجع خطوتين يتأملها ، كأنه في سوق يعاين مهرة أصيلة . فاستدارت « زوبة » إليه ويدها على خاصرتيها :

« مالك أنت ومالنا؟ لم تنحسر فيما لا يعينك؟
فأجابها وهو يعجب جمالها الغاضب عبًا:
« أكنت تنوين قتله؟ »

— « وماذا في ذلك؟ لن يضار أحد إن أنا أنقصت عدد
المأتعين واحدا! » .

فابتسم في حلم ، وعيناه تَقَابَتَانِ تَلَمَّانِ بكل شيء فيها :
« هكذا؟ » .

— « وأكثر! وسيدى « أبو العلا » لو تمكنت من عنقه
لما أفلته سلبًا! » .
« هكذا؟ » .

فكأنما أطمعتها سماحته أو أثارها هذوؤه ، فقد تقدمت منه
خطوتين تمط عنقها صائحة :

« مادمت تدخلت ومنعتني قسرا من الأخذ بثأرى ، فسأبرد
غليلي فيك! » .

فلم يجبها ، إذ كان مشغولا يرمقها وعقله يعمل سريعا .
— « سأبرد غليلي فيك! » .

قالتها مرة ثانية ، وانقضت عليه تضرب صدره بقبضتها ،
وتعض ، وتبصق على ما أمامها من جرمه الضخم . فأحاط

« مدبولى » جسدها النجيل بذراعيه وضمها بعنف شل يديها
وضغط رأسها إلى كتفه . وقهقه وهو يهمس فى شعرها :

« لِمَ أمسكتِ عن ضربى ؟ »

ثم أضاف غمازا : « أو ربما لا أهون عليك » .

فتملصت بين ذراعيه تحاول الفكاك وهى تسبه وتلعنه .
فرفعها وحملها ، عصفورة لاحول لها ولا قوة ، وسار بها . فأشار
واحد من بين الزحام الملتف حولها إلى البيت المتداعى فى آخر
الحارة ، وصاح :

« هناك - فى الدور الأرضى ... » .

وقابلتهما « أم بسيونى » - جدتها العجوز - مهرولة ، وقد بلغها
نبأ المعركة . وتعلقت بذراعى « مدبولى » تحاول إنزال الفتاة
أو أخذها منه ، لكنه زجر ودفعها جانبا بمرفقه ، وخطا بحمله
الجميل إلى الجُحر الرطب حيث تقيم . فارتمت العجوز مستميتة
على « مدبولى » تمسك بتلابيبه ، ودلفت معهما إلى الداخل .
وأغلق الباب خلفهم جميعا .

وشاع النبأ فى الصباح أن « مدبولى » خطب لنفسه « زينات »
حفيدة « أم بسيونى » الفقيرة ، الكسيرة ، غاسلة الثياب . فتعلقت
حواجب النساء دهشة وعجبا ، ومنها ما تراقصت فى سخرية

واستخفاف تخني كمد صاحبها وهي تقول للجارات :

« زينات ؟ ومن هي البنت « زينات » هذه ؟ الحافية التي
يكسو الطين قدميها ، ويعلو القشف ساقها ؟ » .
وهمست أخرى بنجث :

« والنبي يا أختي لو بنجث لوجدت أن الرجل انساق بقوة
السحر . فالمرأة « أم بسيوني » هذه التي تتصنع البؤس والوهن
ما هي إلا ساحرة قوية العين ، تبيت الليالي القمراء تدمدم وتغمغم
وتطلق البخور في جحر العفاريت هذا حيث تعيش ! » .

فانفجرت مولولة امرأة لم تستطع إخفاء غيرتها وحسرتها :
« عيني عليك يا بنتي يا « لوزة » ! فلّ والنبي - بيضاء كالقشدة
ولكن ... ماذا نقول في قلة النصب ؟ » .

ثم انفضت تؤكد بغلّ :

« لا بد أن « أم بسيوني » تسحر لها كي تظلّ عانسا ، !

ووافقتها الأخريات ، وتبرعن باللعنات والدعوات غير
الصالحات يصيبنها صبا بسخاء على العجوز وحفيدتها . وزادهن
الصباح التالي كذا عندما أسرّ بائع اللبن إلى « أم كريمة » أن
« مدبولي » دفع مئة جنيه بالتام والكمال مهرا لـ « زينات » ،
فترنحت المرأة كأنما لكهما الرجل ، وضربت بكفها صدرها

وشهقت - وعيناها جاحظتان - شهقة كادت تفلت معها روحها ،
وتركت اللبن على عتبة الباب ؛ وأصمت أذنيها عن صياح البائع
في طلب نقوده ، وهرولت إلى نافذتها التي تطلّ على الحارة ،
ونادت في صوت مضطرب حاد :

« خالتي « نفوسة » ! « أم سعدية » ! عمتي « أم فردوس » !
حاجة « أم عوض » ! إلى ... إلى ... » .

فانفتحت النوافذ في كل بيوت الجيرة على مصاريعها ،
وأطلت منها النساء : واحدة بقميصها لم تكمل بعد ارتداء ثيابها ،
وواحدة تمشط شعرها ، وأخرى تضم وليدها وقد ألقمته ثديا
كبيرا عاريا ، ورابعة تقلب السكر ليندوب في كوب الشاي .
وسخّن في صوت واحد :

« مالك يا أختي ؟ » .

فلوّحت « أم كريمة » بيديها يمينا وشمالا في ولولة صامتة
بليغة ، كأنما اندلقت مصائب الدنيا على رأسها .
فقال « نفوسة » :

« سلامتك يا أختي . أمريضة أنت ؟ » .

لا جواب .

فانبرت « أم فردوس » تصيح :

« ياندامتى ! أبو كريمة ، مات ؟ » .

وتبعتها « أم سعدية » تتساءل :

« ... » كريمة ، أغمى عليها ؟ .

ولاحقتها « أم عوض » :

« كفى الله الشر ! موقد النار انفجر ؟ » .

وسابقتها التى ترضع طفلها :

« أسرق اللصوص حلاك ؟ » .

واشتركت التى تشرب الشاي :

« أبو كريمة طلقك ؟ » .

ولا حياة لمن تنادى ... « أم كريمة » ، على حالها ... اليدان

تلوحان يمينا وشمالا ، والرأس يومئ أسى ولوعة . كل

ما هنالك أنها دست يدها فى عبا تبحث بين نهديها السمينين

لحظة أخرجت بعدها قرشين ألقت بهما إلى الحارة ، حيث

وقف بائع اللبن رافعا وجهه إليها يلوح ، ويزعق فى طلب

نقوده . وعادت إلى نواح الإشارات ... فصاحت امرأة نهش

الفضول صبرها :

« طمئنينا يا أختى ... إلهى يطمئنك ! » .

فرمتن « أم كريمة » جميعا بنظرة طويلة ، ثم مالت على حافة

النافذة إلى نصفها ، وألقت بالقنبلة .

فدقت النسوة الصدور ، وتلفت بعضهن إلى بعض في كمد ذاهل ، إلا « أم عوض » العجوز . تمصت شفيتها المجعدتين وتأودت بعنقها الأعجم تقول في تهكم لاذع :

« وما لها زينات ؟ غزال عيونه ملاح ، وحسنه لاح ! » .

ثم أضافت :

« على رأى المثل : الغيرة نار ، يا أهل الدار ! » .

وأغلقت نافذتها بعنف في الوجوه المغيظة المحدقة .

فانهال عليها السباب من كل صوب ، وكيف أنها تمهد لحضور الزفاف حتى لا تفوتها « أكلة » : وكيف أنها ساحرة تحامى عن زميلاتها « أم بسيوني » وكيف ... وكيف . وهي خلف النافذة تضحك في كها . لقد كادت جاراتها ... وهذا هو المهم .

وجاءت « أم أحمد الدلالة » تحمل صرتها وأخبارا جديدة مثيرة : فالتفنن حولها يسرفن في شراء مناديل الرأس الزاهية ، والأمشاط واللاذن والروائح العطرية حتى لا تحفى عنهن شيئا ... هيه ... ماذا هناك من جديد ؟ ... الشبكة : سوار ذهبي عيار أربعة وعشرين تنوء اليد بحمله . و « زينات » : اشترت دسنة من العقود الخرزية والزجاجية الرائعة ، وجعلت لكل عقد

عصابة رأس تضاهيه لونا حتى يكونا «طاقما». وماذا أيضا؟ خمسة أزواج من الأحذية الجلدية الملونة، وعشر قطع من الحرير الهندي تغلب الألباب. وأثاث البيت؟ ماذا جلبت بالمشة جنيه؟ ألم يبلغكن الخبر؟ هنيئا لها - «أم بسيوني»! لقد تجملت لها ليلة القدر... عندما أعطاها «مدبولي» المئة جنيه أعلن أنها هدية لها، وأنه لا يريد منها سوى عروسه بالثوب الذي ترتديه. ولا تسلمن عن الهدايا التي تتساقط على «زينات» وجدة «زينات» من «مدبولي» وأحباء «مدبولي»!

و «سفروت» و «دقدق» و «كتكوت» - صبيان الحى يحومون حول بيت العروس اليوم كله، وينقلون إلى أمهاتهم كل ما يجت من أمور. «مدبولي» استأجر شقة في العمارة الجديدة التي بناها المعلم «ضبعة» الجزار، وأثنا بمتاع فاخر. «مدبولي» أرسل إلى «زينات» خروفا وديكا روميًا وقفصا تطل منه رؤوس دجاجات لا عدد لها. «زينات» خرجت مبكرة في صحبة من لَدَاتِهَا إلى «حمام السوق». «أم بسيوني» أقامت الزينات وعلقت الرايات والثريات في سرادق ضخم أمام جحرها. لقد عقد القران. ولكن - أليست البنت صغيرة؟ كيف رضى المأذون؟ هددوه. وهل يسكت فيعرض نفسه للسثولية؟ وهل

يجرؤ على التبليغ فيعرض نفسه للقتل ؟ دعونا منه - لقد أقبل

الطبل البلدى ! اليوم الزفاف !

فانهارت أعصاب نساء الحى ، وأفلت منهن الزمام . فتعطرن
وتكحلن ، وارتيدين خير الأثواب وأبهاها . وصرت كل واحدة
ريالا فضيا على طرف منديل يدها تدفعه للراقصة - نقطة - نعم -
سيذهبن إلى الفرح . فلئن أخفقن فى صيد الفحل لبنت من بناتهن
فلا أقل من فرجة ، وأكلة ، وموضوع دسم لحديث يطول أياما .
وهكذا . ما أقبل المغرب ، حتى تكثس أهل الحى فى
السرادق الواسع الذى قسم شطرين : قسم للرجال يتأوهون فيه
مع مغن بلدى ينوح على الأرعول ، وقسم للنساء يحملن فيه
إلى أجساد الراقصات تتلوى ، ويتهاسن ضاحكات للنكات
والأغاني الفاضحة .

ثم أقبل « مدبولى » فى موكب من الشجعان والمتعطلين
يسندونه ويحفون به حاملين طاقات الورد والريحان ، بعد أن
طافوا به حارات الحى وأزفته تزفه فرقة موسيقية نحاسية ، علت
بضجيجها على الغناء والأغاريد . وأمام بيت « زينات » لوح
« مدبولى » بذراعه يخرس كل صوت ، ثم صاح :

« سلام للعروس وجدة العروس ! » .

فردد قوله الحاضرون . فقال :

« ألف ألف مرة » ! .

فدوت الموسيقى ، ودقت الطبول ، ونفخ الزامرون تحية
للعروس وجدة العروس . ثم صاح « مدبولي » :

« سلام لشجعان حيّ المديح ! سلام لشجعان الحسينية !
وسلام لشجعان السبتية وطالون وباب الشعرية » .

فأجابه الجمع :

« ألف ألف مرة » .

موسيقى وتصايح .

فعوج « مدبولي » لاسته الحريرية على رأسه ، ولوح بعصاه
الخيزرانية الرفيعة بزهو ، وصفق بيديه طويلا :

« صلاة الزين . صلاة الزين ! وسلام يا ولد لضيو في كلهم -

ألف ألف مرة ! وأنا وأنت » .

وللحال أفسح المحتشدون له مكانا يرقص فيه على النغمات المرحّة
متمايلا ، يمس جبهته بطرف عصاه آنا ، ثم يرتكز عليها ويدور
حولها راقصا آنا آخر . وتتابعت أغاريد النساء تحييه ، وتحمّس
شجيع جاء مهنتا ، فعوج لاسته هو الآخر على رأسه ، واندفع
داخل الحلقة يلوح بعصاه فوق الرؤوس وهو يتمايل أمام

« مدبولى ، وتبعه غيره من الشجعان واحدا إثر واحد . وكان الحفل فى أوج ازدهاره وتأججه عندما انطلق فجأة صفير طويل حاد شقّ الصخب كسكين . وتبعه صفير آخر صارخ ، ثم ثالث ورابع كأنها إشارة متفق عليها بين رجال الشرطة ، لينقضوا على الجمع المتكثف دفعة واحدة ويطبقون عليه من كل جانب .

فهاج القوم وماجوا ، واستماتوا للإفلات من الجند ، وقد سها كل امرئ عن أخيه ، فكأنما هو فى يوم الحشر لاه إلا عن الفوز بنجاته ، ولكن رجال الشرطة لم يتيحوا لهم فرصة ، ولا يسروا لهم منفذا ، بل أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وقد كوتوا من أنفسهم سدا منيعا لاسيبل إلى اختراقه ختمّ المحتفلين داخله : لف كل جندى ذراعه حول ذراع زميله ، وألقى بثقله على الجمع يضغط بكل قواه لينحصر الشجعان حيث هم لا يملكون فكاكا . وتربّص خارج الدائرة جند آخرون يحمون بسلاحهم ظهور زملائهم المهاجمين ، ويردون من قد ينبجح فى الهرب من الأشقياء المطلوبين .

فتار « مدبولى » مجنوناً يرغى ويزيد ، وأعمل هراوته فى رؤوس المحيطين به بوحشية واستماتة كأنما يضرب بمعول بنيانا مرصوصا ليفتح ثغرة يفرّ منها . فعلا الصراخ ، وجرح من

جرح وصرع من صرع . ولكن ازداد الضغط من الخارج ،
وضاقت الحلقة به هو ورفاقه حتى وقفوا متكاتفين - مشلولين
لا يملكون حَرَآكا ، فلم يشعروا إلا بأيديهم تُعَلَّ بالقيود
الحديدية ، وقد انسلت بها بين مدار الجند ثلثة من الضباط .

وفي السيارة « اللورى » التى حملت العصبة حملا كالأغنام إلى
المركز ، ابتسم ضابط يجلس إلى جانب السائق وفرك كفيه
استبشارا ، وهو يقول له :

« صَيْد دَسِمِ والله - ستة من كبار الفتوات مرة واحدة » .

وفي داخل السيارة بَرَكَ الشُّجْعَان مطرقين مخذولين . وكان
« مدبولى » يعضُّ بنانه عضا قاسيا يكاد يقتلعه ، يمضغه ، ويقضمه .
فرمقه جاره لحظة ، ثم همس فى أذنه مواسيا :

« شد حيلك يا أخى . السجن للشُّجْعَان ! » .

فهب « مدبولى » رأسه آسفا كاسف البال :

« وقعت - والسبب غلطة صغيرة » . . . وأشار بإصبعين يؤكد

كلامه : « صغيرة - غلطة واحدة فقط فى حياتى ! » .

— « وهى ؟ » .

— « المأذون - تركته يعيش ! » .



رهال

جلست « أم حَميدة » - العربية العجوز ذات اللسان اللاسع -
تجدل جبلا من ألياف النخيل ، وترنم بأغنية مرحة من أغاني
الصحراء ، وقد ربطت طرف الجبل ياصبع قدمها الكبيرة ،
وراحت تفرك وتضفر بهمة ومهارة .

كان الربيع قد أقبل ولمس كل شيء في قرية « محلة موسى »
بكفه السحرية يسمه بطابعه : الجوّ الصحو ، والسماء الصافية ،
والخضرة الشاملة ، وزقزقة العصافير المنهمكة في عملها ، وثغاء
الخلان والمعيز تتواثب حول أمهاتها . كما سكب نضارته
في وجنات العذارى وعيونهنّ البرّاقة ، وهنّ حاملات الجرار
يتمايلن بها دلالا في صف طويل نحو الترعّة . وبث فتوته
في الشبان ففجّر واقتوة وحيوية ، وتوثبت خطواتهم وهم يتبعون
العذارى عن كذب يضاكونهنّ ويبادلونهنّ غزلا ساذجا .

فلا عجب أن شَعرت « أم حَميدة » أيضا بوقع الربيع . فرفعت
عينين راقصتين إلى الشباب وهم يمزون أمامها ، وصاحت من

مكانها تحت النخلة :

«إلهى وأنت جاهى أهنتكم جميعًا عن قريب بالزواج من
حبات قلوبكم !» .

فتضاحكت الفتيات وتضرّجت منهن الوجنات وترنح الفتيان
سكارى بشبابهم ، وأجابوها رافعين أكفهم نحو السماء :

«إلهى يستجيب لدعائك يا خالتي «أم حميده» يا أميرة !» .
وضجوا بضحك صاحب مرح - اشتركت فيه المرأة
وهي تتمم :

«ويل منكم يا شياطين !» .

وران عليها صمت ، هامت خلاله في وادٍ من الذكريات
بعيد... سحيق... يوم كانت هى الأخرى ريانة العود ، تتضوق
حيوية ، ويصنع الشباب خديها... يوم كانت تترع بمرح ينسكب
على كل من حولها... تطلق الضحكات رقراقة خالصة كحريز
الجداول من أعماق أعماق قلبها... وتخطر غزاله راقصة لا تكاد
قدماها تلسان الأرض... يوم كانت تشد حول خصرها الضامر
وشاحها الأحمر ، راية عنديتها ، وتتيه بالقرط الذى يترجّح من
أرنبه أنفها... يوم كانت تملأ الدنيا شدوا... تقبل عينها
والهتين الصحراء المترامية أمامها... والسماء المبسوطة فوقها...

وكتل الصخر المتناثرة - حتى الهواء كادت توسعه ضمًا وتقبيلا من فرط نشوتها بالحياة ! ... أما عنزاتها الخمس فكانت تتحمل وحدها نوبات ذلك الحب الجيَّاش الذي يفيض بصاحبها ، فتنفض عليها تزهق أرواحها في فورة حنانها ، وتخرم آذانها وتعلق فيها حلقات من صفيح كالأقراط ، وتزين أعناقها بما تجمععه في تجوالها من خرزات زرق وحمرة وخضر ، أو مزق من نسيج زاه .

وكان اسمها قبل أن تزوج وتنجب « حميدة » : « شماء » - تعيش وحدها في خيمة من الخيش في مضرب قبيلة « عرب التراجمة » عند سفح الأهرام ، وكان كل رجل في عشيرتها - ابن السابعة وابن السبعين - يعتبر نفسه وليّ أمر اليتيمة ذات الجمال ... فيدس في يدرينته بعض مكسبه أو ما أكله . ولم تكن النسوة يكرهنها ، فهي زاهدة في رجالهن جميعا ، لا يعطيها أحدهم شيئا حتى تذهب إلى حريمه - زوجة أو أم أو أخت - وتشكرها علانية . فخلصت سمعتها من كل شائبة ، وزها اسمها في الجيرة ، واشتهرت بـ « المليحة أم خنجر » إشارة إلى تمنطقها بسكين تسنّ حدها على الصخرة التي تجلس عاها كل ليلة أمام خيمتها بعد أن تبيّت عنزاتها ... وزاد من علوق قدرها بين قومها صوت رخيم ، وترنم في انطلاق على السجية بأغنيات رقيقة كالشعر : تنظمها

للناسبة القائمة . فإذا كان هناك عرس تغنّت باسم العروس
وجمالها وحسبها ونسبها ، وهي ترقص على دق الدفوف بسيف
تشهره تلوح به فوق رأسها ، أو وهي منطلقة في سباق على ظهور
الإبل مع فتیان القبيلة في استعراض على ضوء القناديل .

ويوم جاءها « سلطان » الفتى الترجمان ... كانت جالسة تحلب
عزاتها عند الغروب ، عندما لمحتة مقبلا عليها يحمل سفظا من
سَعَف النخيل وضعه دون كلام ولا سلام عند قدميها . وحلّ
طرف عمامته الذي يتلمّ به ، ووقف ينتظر .

فرفعت « شماء » إليه عيني مَها تسيحان في أرجاء وجهه ،
تأملان سمرته ، وأنفه الأشم ، وعينه النفاذتين ، وطابع الحسن
يكاد يفلق ذقنه كأنما ختم الله سبحانه عليه بإصبع بعد أن فرغ
من خلقه . وانحدرت نظرتها إلى كتفيه وصدره العريض ،
تنتفض عضلاته فتية حيّة تحت جلبابه ، وقد رق نسيجه وذهب
لونه . وعند خصره تسمرّ بصرها ، وعلق بالحزام الجلدى
العريض الذى يشده يزيدُه ضمورا وتدلى منه غدارتان .
أما قدماه فقد ثبتتا في الأرض كأنهما جذعا شجرة عتيده ، وقد
انتعل خفا خشنا من وبر الإبل .

وسألها « سلطان » عندما رآها تسبل جفنيها : « أى « شماء » :

أتقبليني زوجاً؟» .

فاندفع الدم يلهب عنقها ووجنتها وإن لم تبدر منها بادرة .
وقامت إلى السفط الذي جلبه معه تكشف عنه غطاءه ، واغرقت
حفنة من الشعير الذي يملأه ، ثم تركته ينهمر ثانية من بين أناملها
وهي تتأمله باسمه . وأكلت بعض حبّات من هدية التمر المجفف ،
تلوكها متمهلة مستمرّة .

ثم نهضت ببطء وواجهته مشوقة القد ، ناهدة الصدر ، تضم
ذراعها على كثره النافرين ضئيلة كأنما تهيب بهما أن يهبطا شيئاً
ويخففا من شموخهما . وعندما لمحت يرقبها والهأ لا تفوته منها حركة
ولا التفاتة ، تضطرم في أعماق عينيه السوداوين نار وئيدة ،
انكفأت على عنزاتها تهشها وتبيتها . وغمغمت وهي تحتضن
«برنية» الحليب :

« قِيلْتُكَ زَوْجاً يَا سُلْطَانَ ! » .

فانشق وجهه عن ابتسامة تفيض سعادة غرقت فيها قسماته
كلها ؛ ومال نحوها يقبض على كتفها براحتيه الكبيرتين في خشونة
لحفة . فخدجته غَضْبِي ، وأطاحت بلطمة راحتيه بعيداً عنها ،
وهي تقول :

« مرحي ! مرحي ! أو ملكتني بعد يا بن عبد الله ؟ ... فطأطأ

« سلطان » رأسه ، وهتف يسترضيها :

« ويحيى - أأغضبتك ؟ أى شئاً - السماح ! » .

ثم أردف ونظرته بعيدة : « لو علمت ما فعل الهوى بحشاي

لعدرت ... سأحتك ! » .

فتلاعبت على شفيتها ابتساماً عضتها مسرعة ، وهمست :

« سأحتك ! » .

فاختطف كفها يمزغ عليها وجهه ... يمسح بها ... يتشممها ...

يلثمها ... يريح عليها صدغه . فتركها « شئاً » له مصطربة تنوؤ إليه

بتحنان ، حتى إذا هداً شيئاً ، سحبت منه مترققة ، وضمتها إلى صدرها

وليدة غالية ، ودارت على عقبيها ، وسارت عنه تمشى الهوىنى !

فتبعها دون أن يسألها - غير مهم أن يعرف أين يذهب -

أسيراً ، عبداً يلتذ بعبوديته .

أوغلت مجدّة في السير ، حتى تركت مضارب خيام قبيلتهم

وراء ظهرها . وصعدت تلاً ، ثم آخر ، وآخر . وجأة ، كأنما حل

عقلها ، أو انفجر مرجل يغلي داخلها ، انطلقت تعدو وتعدو سهماً

مارقا ، لا تتباطأ ولا تتعثر ، يضرب الهواء وجنتيها ويبعث شعرها

بطيش - بجنون ، فما توقفت وما التفتت وراءها مرة . حتى إذا

لاحت الأهرام الثلاثة راسخة كأنما تنبت من جوف الأرض .

وتغلغل جذوعها متفرعة في قلب الصحراء ، خزت « شماء » على
ركبتها تلهث بشفاه مفتررة و عيون متألثة برّاقة ، كأنما هوت
نجمتان في حدقتها ، تتم بصلاة خرساء .

فارتقى « سلطان » يركع أمامها ، ويفعل دون وعى مثلما
تفعل ... ظلُّ ظليل .

وأطل القمر بخضر متردداً من خلف قمة الهرم الأصغر . فلما
استهواه منظر العاشقين ، بزغ بجرأة يفتح السحاب ينفضه عنه ،
وبسط رداءه الفضي عليهما وعلى الكون كله من أجلهما ، ثم راح
يرقيهما مبتسماً .

فرفع الحبيبان وجههما إليه في صمت - تبتل . ثم أرخت
« شماء » عينها ، وعضت شفتها ، وقد كشف خلوتها ثالث .
فقامت تضرب عن جلبابها ذرات الرمل ، وتللم شعرها تحت
خمارها تعقصه عليه .

فقال « سلطان » في ابتهاج ، وهو متشبث بمكانه : « لنبق ...
بربك » شماء « لنبق ... هنا ... بعض الوقت ا » .

وأدار ناظريه حوله بتشواق متعبدا ، وعيناه حالمتان كأنما
لم يقع بصره من قبل على صحراء ورمال ... كأنما يراها
أول مرة ...

فتأملته « شماء » لحظة ، ويداها على خصرتها ، ثم أقلت
برأسها إلى الخلف ، وانفجرت ضاحكة تقهقه :

« قم ... قم يا مفتون ، يا غلبان اقم - أم تراك نسيت الخطوة
الثانية : عليك بأهلى تخطبني منهم كبنات البادية الحرائر !... »
فزَم الفتى ما بين حاجبيه يجهد فكره ... هى يتيمة ... فسألها
متحيراً يتخيّر ألفاظه :

« أهلك ؟ أعرف - أعنى ... أنا ... أنا ... » .

فقاطعته تهز رأسها متخابثة :

« إى والله يا فتى العرب - أهلى ! ألا تعرفهم ؟ أفراد قبيلتى -

فهمت ؟ كبيرهم وصغيرهم ... ستخطبني منهم علانية ! » .

وجأة انقضت عليه ، واختطفت عمامته عن رأسه ودستها بين
نهديها بسرعة ، ثم أكبت ، غزالة شرودا ، تقفز نافرة ، تضم
ساقها إلى بطنها ، من فوق الحجارة والتلال والفجوات التى
تعترض طريقها ، وهى تصيح به :

« الحق بي - تأخذها وتأخذنى ! » .

فهبّ « سلطان » ليثاً فى إثر إلفه ، وقد تقوست كتفاه ، ولملت

عيناه ، يضرب منخراه المرهفان الهواء ، فرساً أصيلاً مضطرباً .
وأمسك ذيل جلبابه بين أسنانه ، وانقضّ يطوى ما يفرقه من

مسافة عن جبينته . ولكن « شماء » هبطت جوانب المنحدر
كالشهاب المنطلق - إلى السفح ، حيث الخيام .

فتوقف « سلطان » يرقبها يا عزاز نفورًا ، ثم عبس
عندما تذكر شرطها . فبسط ذراعيه كالطائر ، وألقى بنفسه خلفها
دون ترو . فتدحرج متكورًا من على كدمعة كبيرة على خد
الجبل من فرط ما أضحكه منظر العاشق .

واستقبلته ضحكات « شماء » وقد وقفت تنتظره ، ويداها على
خاصرتيها تمايل لا تملك استمساكا .

فاستلقى « سلطان » على ظهره مكانه يرمقها ، وشفته ناتئة
كطفل غاضب ، وشعره الغزير الحالك مهتدل على جبينه يضيق
عليه وسامة صيبانية محببة .

فاضطرب قلب الفتاة ، وعربد في صدرها . فهدت - تخفى
هيامها - قدما صغيرة ، وعفرت قدمه بذرات من الرمل وهي
تقول مداعبة :

« قم .. هيّا ... قم يا فارسي الجميل ! » .

فتشبث نظر « سلطان » بالقدم الوردية الحافية وخلخالها
الفضي ذي الجلاجل .

- « قم .. هيّا ... هيّا الحق بي ! » .

وقبل أن تستدير لتواصل السباق ، قام «سلطان» على مرفقيه . وفي مثل لمح البصر جذبها من قدمها . فهوت على صدره تغرغر بصرخة حزينة ، يمامة تعثرت في شبكة .

وضمها «سلطان» بوحشية ، كأنما ينوى سحق ضلوعها ليصل إلى روحها الطلقة يخضعها بين ذراعيه . وهبَّ على ركبتيه والأسيرة تملص في أحضانه ، يبحث بشفتيه عن شفيتها . وضغط كنفها ... وزاد الضغط ... إلى الخلف ... وهي تقاومه ... تقاتله ... مستميتة تضرب برأسها يمينا وشمالا ، وقد أخفت شفيتها بين أسنانها .

وجأة شق ، وانخذلت ذراعاها ، وارتمى إلى جانب والدماء تنبثق من كنفه . فقفزت «شما» عن الأرض ترمقه ، وهي تمسح خنجرها بعمامة التي أخرجتها من عبها ، ثم ألقتها إليه ملطخة بدمائه . ودست خنجرها ثانية مكانه ، تربته ... ثم سارت عن فتاها - سارت ولا يدري صدرها ما يجيش في قلبها ، ولا يقف جفنها على ما تحتلج به عينها - سارت ... عائدة ... ممشوقة ... يطاول رأسها السماء ، دون أن تنبس بحرف .

لم يكن جرحه عميقا ولا خطيرا . ولم تلبث الدماء أن توقفت من تلقاء نفسها . فبلل «سلطان» طرف عمامته بلعابه ، ومسح

على الجرح مسحا خفيفا ، ثم قام وعيناه على الشيخ الذى يتعد عنه يلفه الظلام .

وفى خيمة شيخ القبيلة دلف « سلطان » وأقرأ المجتمعين السلام . فلما فسحوا له مكانا بينهم ودعوه لمجلسهم لم يعرهم التفاتا . وصفق الشيخ يطلب قهوة للضيف ، وهو يتمم بكلمات الترحاب والإكبار المحفوظة . فبادره « سلطان » - واقفا - بطلبه ... يد « شماء » .

فابتسم الشيخ ، وربت فروة خروف جنبه ، وقال :
« تعال ... اجلس يابنى ... » شماء « بنتنا ، وأنت ابنتنا ، والله - ياذنه - الموفق ! » .

فلم يتحرك « سلطان » من مكانه ، وزاد على طلبه كلمات خرجت من بين أسنانه فخيحا ، والفتى يجاهد ببسالة فورة عواطفه :
« أريدها ... الليلة ! » .

فقفر شيخ القبيلة فاه ، ونظر إلى الرجال حوله يشاورهم فى صمت ؛ ثم تنحى وحك قفاه طويلا ، ثم سعل وبصق خلفه ، ثم تشاغل لحظة بجبات سبخته ، ثم تساءل :
« الليلة ؟ الليلة ؟ » .

فردد « سلطان » :

« الليلة - الليلة ! » .

فهو الشيخ كفيه وراح يقهقه بعصبية ، وهو يعلم في أعماقه أنه أمام قصة غرام مشبوب . عليه بوقاره أن يدير دفتها كربان السفينة الخزر بين أمواج المشاعر المتلاطمة الفائرة إلى شاطئ الأمان .

فتنحى مرة ثانية ، وسأله :

« وهل خطبت البنت إلى نفسها ؟ » .

فأوما « سلطان » بالإيجاب .

— « ورضيت بك حليلا ؟ » .

مرة ثانية ، إيماءة مقتضبة .

فارتفع حاجبا الشيخ وكنفاه ثم هبطا كأنما يقول : « اتھينا » .

وعاد يسأل :

« ومهر البنت ؟ » .

فربت « سلطان » صدره ، ثم دس يده في عبه ، وأخرج ورقة ذات خمسة جنبيات - دفع بها إلى الشيخ ، وتراجع خطوطين يقول :

« وخيمتي وبعيري وناقى وحمارى - كلها شركة معها ، أكتب

وأختم على ذلك ! » .

قتهلت أسارير الشيخ، وهز رأسه رضا، وصاح :
«علينا إذن بالبنت - نسألها ونسمع جوابها بأذانتنا، ونشهد
على قبولها إِيَّاكَ!» .

وقام شيخ القبيلة، وقام معه وقوران آخران من حوله،
وساروا جميعا صوب خيمة «شَمَاء» و«سلطان» يتابعهم ببصره .
فلما عادوا، كانت «شَمَاء» معهم في جمع من النسوة يطلقن
أغاريد حادة بهيجة ويهلن ويصفقن فرِحَات : فرفع شيخ القبيلة
ذراعيه أمامه، فساد سكون؛ وتعلقت العيون بشفتيه وهو يقول
موجَّها كلامه للعروس :

«أى «سلطان»؛ لقد قبالتك «شَمَاء» لنفسها بعلا ولكن .» .

وَحَكَّ لحيته التي تحاكي منشور ملح وفلفل :

«ولكن ... أخشى أن يقول الناس : شبَّب «سلطان»

بـ «شَمَاء» حتى بنى بها ليلة خطبتها . أى بُنِيَ ...» .

وسار إليه، ووضع يده على كتفه بحنان :

«بُنِيَ - ألا تخشى معى على سمعة البنت؟ هلا أفصحت لماذا

تصرَّ على ... الليلة؟» .

فنزح «سلطان» عن كتفه عمامته التي ضمدها بها . فتناولت

الأعناق، وترامت الأبصار، ترمق الجرح القانى بدهشة وفضول .

وأشار الفتى إلى كتفه وغمغم :

« أريدها لتداوى جرحا ... جرحا ! » .

والنفت إلى « شمَاء » ، وابتسم .

فأرخت جفניה تبسم ، وخذأها يلتهبان .

فهلل الرجال وكبروا ، وغزدت النساء ، وقد تكشف لهم

الأمر ... وفي الحال جاءت النسوة بطسوت وصفائح فارغة قلبنها

على حلوقها ، وقبعن أمامها متحلقات يعملن فيها كفو فهنّ طبلا

مدقوارانا ، على حين اندفعت صبايا من أتراب « شمَاء » يرقصن

كظباء سكرى ، كل واحدة ممسكة بشيء تهزه فوق رأسها : هذه

بعضا أيها ، وتلك بسيف جدّها ، وثالثة بسوط عمها ، وأخرى

تلوح بعمامة خطيبها .

وانخرطت عجائز هُتم عجاف يرددن أنشودة البادية القديمة

قَدَم الخليفة :

آيه	بنت العرب
رايه	هذا الشرف
تحميها	بالروح
تفديها	بالقلب
يا بايا	وما تقول

وبسط «سلطان» عباة في صمت كجناحين هائلين ، فشت
«شما» إليه ، واستكانت تحت جناحه .
وأخذها وزهب بها - تلك الليلة .

* * *

هزّت «أم حميده» رأسها في أسي ، تتمصص شفيتها لذكريات
عزيزة ، وأكبّت تم جدل الجبل الذي بين يديها المعروقتين
وهي تنهد :

«هيه... زمن!»

جَنِّ مَصَوَّر

لطمته أمة على نغذه ، وصاحت به غضبي :

« أصعد إلى حجر تك فوراً لتنام ! » .

فلما رفع إليها عينين مستديرتين تتقاتل في أعماقهما عفرتة

وسداجة ، وهمهم بصوت صغير :

« أمي ... » .

... لوّحت في وجهه بإصبع تهزه مهددة ، وقاطعته وهي تزم

شفيتها في خط رفيع صارم :

« كفي إلا أريد سماع كلمة أخرى منك ! اذهب ونم ! » .

فدار على عقبه برأس مطأطئ ، ويداه متشابكتان ورام

ظهره ، وسار شحيحاً ... خطوة ... خطوتين ... نحو السلم . وفجأة

رفع إحدى قدميه ، وحك حذاءها بسرّواله في شدة . فتناثر

الطين المتجمد عليه فتاتا فوق السجادة العجمية الثمينة . فصرخت

أمة ملتاعة :

« السجادة ... يا ولد ! » .

ثم تمت ، وقد انخذلت ذراعاها إلى جانبها في استسلام
يأس :

— « ما حيلتي معك ؟ » .

ونظرت إلى السقف في ضراعة صامته ، شهيدة في اضطبار .
فأكب « سوسو » جذلان ينهب الدرجات مثنى مثنى .
وعندما وصل إلى أعلى السلم امتطى الدرايزين كالحصان ، وانزلق
هابطا في قوة وسرعة خاطفة ، وهو يطلق صرخات حادة مزعجة
كزئوج الغاب عند النزال !...

فهرولت أمه ومعها أبوه من حجرة المكتبة إلى أسفل
الدَّرَج ، وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتنز ، وقد حملت
المغرفة مشرعة في يدها كأنما تهاجم عدوا ، ونقر « عم دسوقي »
- البستاني العجوز - زجاج الباب الخارجي ، وراح يلوح يديه
من خلفه في اضطراب ، مستفهما عن سرّ الصرخات التي طرقت
سمعه وهو يسقى الأزهار والورود في الشرفة .

أما « هو » فقد سقط مستلقيا على ظهره ، وهبّ واقفا من
فوره كالكرة من المطاط ، وأخذ يضرب نخديه ضربات خفافا ،
ويرمى الوجوه الواجحة المحدقة به بابتسامة عريضة شقت وجهه .
وقبل أن يفيق أحد من الكبار المزعجين الذين جمد الدم



... وأطلت الطاهية البيضاء بوجهها المكتر ، وقد حملت المفرقة مشرعة في يدها كأنها تهاجم عدوا ...

في عروقهم ، أكبر مرة ثانية يطوى درجات السلم طبا ، يلوذ بحجرته في الطبقة العليا .

فتابعه الجميع بعيونهم مغيطين في صمت . ماذا هناك يستطيع المرء أن يفعله حيال جن في السابعة من عمره ؟ لا شيء - طبعاً . تمصت الشفاه ريقها قنوطاً ، واهتزت الرؤوس في أسف ، وعاد كل واحد حيث كان قبل غارة زنجي الغاب . . .

وكان أبواه عصر ذلك اليوم يزعلان زيارة أصدقاء لهما . فنادى الأب الطاهية وأبلغها أنه ربما امتد بهما السهر ، فهو يوصيها أن تفتح عينها جيداً ، وتتنظر المريية الجديدة التي سيرسلها الخدم . ثم خرج وزوجه . ولم يلبث « عم دسوقي » أيضاً أن أطل برأسه في المطبخ ، يتشمم الهواء كالقط الجائع ، قبل أن يعلن ميعاد عودته إلى كوخه .

فدست الطاهية بين راحتيه الحشنتين رغيفاً منتفخاً بما في قلبه من أصابع محشو الكرنب وقطع اللحم . فتقهقر « عم دسوقي » ، بغنيمته سعيداً هاتناً ، يطبق عليها بأصابع عجاف من حديد ، كجدوع شجرة هرمة مستمينة في الأرض .

فابتسمت « أم محمد » ، وهي تشعر برضاء عظيم عن نفسها وحالها . كل شيء يؤكل في البيت تحت يدها . فمعها مفتاح الخزن ،

تعرف من السمن ما تشاء، فتطهو بربعه وتعبي الثلاثة الأرباع في
علبة، لتأخذها هدية لبنتها العروس يوم عطلتها الأسبوعية .
ولا يقتصر ما « تدبره » وتأخذه لـ « نفيسة » على السمن وحده ،
بل يشمل من الأرز والدقيق والبصل الشيء الكثير - حتى ملح
الطعام له علبة خاصة تنتقص فيها كل يوم حفنة . إنها جد سعيدة
بالخدمة في هذا البيت . فالأب مشغول جداً - دائماً مشغول ،
والأم منطوية على نفسها . تهمس في حديثها ويقفز ذعر إلى عينيها
عند ما تتحدث إلى الخدم . بلهاء ... صنم ... هزت « أم محمد »
كفها بقلة الكثرات وعدم احترام ، عند ما خطرت سيدتها على
بالها . على كل حال هي أحسن من غيرها . فهناك سيدات يدسسن
أنوفهن في كل شأن من شؤون البيت والمطبخ . كم ملعقة من السمن
أخذت ؟ كم بصلة ؟ كم كوباً من الأرز ؟ أف ... أعوذ بالله ! لوّحت
« أم محمد » بيديها في الهواء بحركة لاشعورية تطرد عنها شبح ربات
البيوت أولئك ، الناہات الناصحات المتعبات .

ثم ملأت إبريق الشاي ووضعت على موقد الغاز ليغلي ،
وجلست ترقبه بسرور وتتهجد رضا . هي دائماً كريمة مع خدم
البيت ، تدس لهم الطعام دسا فيتنافسون في مساعدتها في غسل
الصحون وأواني الطهو ومسح بلاط المطبخ . وهم يأتون إليها

بمشاكلهم وخلافاتهم التي تضع لها حدا كتبها الفاصلة . لذلك هي لا تدرى لم خرجوا كلهم واحدا إثر الآخر هذا الشهر ، حتى لم يبق في الدار سواها وسوى « عم دسوقى » البُسْتَانِيّ . الحمد لله على كل حال - ستحضر الليلة المريية الجديدة ، وإلا كان عليها أن تطعم الشيطان الصغير ، وتسهر بجانب فراشه حتى ينام ، وبعد ذلك . . . هنا أخرجها « الشيطان الصغير » نفسه من تأملاتها ، وقد تسلل إلى المطبخ على أطراف قدميه الخافيتين ، وفاجأها من خلفها بصرخة نكراء دلقت كوب الشاي الذي كانت تشربه على صدرها . فهبت تدفّ يديها تستجلب برداً للحرارة التي تسعها ، وتدور حول نفسها مولولة ، والضحكات المرحة ، رنين جلاجل ، تزفها . فلما ارتمت لاهثة على مقعدها ، تبصق في عبا ، وتستعيز بالله من كل شيطان رجيم ، لمس « سوسو » ذراعها بكفه الصغيرة القذرة ، وغنم ورأسه مطاطع وشفته ناتئة :

« خالتي أم محمد - غضبانة أنت مني ؟ »

فتأملته المرأة برهة ، وبقايا شاي تتساقط قطرات من ذقها ،

ثم انفجرت ضاحكة :

« وما الفائدة يابني ؟ تعال - تعال هنا ! »

وربّت حجرها السمين المريح . فتسلقه « سوسو » كما يتسلق

المرء هضبة ، ثم أسند ظهره إلى مخدة نهديها الكبيرين ، وقال وهو
يدس رأسه تحت جناحها كالفرخ الخائف :

« قولى لى حكاية ! »

— « قل لى أنت أولا - هل شربت اللبن ؟ »

— « لا - لا أريد ! »

— « قالت أمك لا بد من شربك اللبن ، وأكلك قطعة

الكعك ، قبل النوم ! »

فاحتضنها « سوسو » بكل قواه ، حتى إذا عجزت يداه عن

أن تلتقيا حول عنقها ، قبَّلها فى رقبتهَا ذات الثنيات قبلة

فرقعت ، وقال :

« خالتى أم محمد - أتجيبينى ؟ »

فضمته فى صمت ضمة حملتها الجواب . فعض « سوسو » شفته

كيلا يتأوه ، وهو يشعر بصلوعه تنقص ، وعالج ابتسامة ممتنة

عندما قالت له :

« والنبي أحبك - موت ! »

— « إذن اشربى أنت اللبن وكلى الكعكة ، وأعطينى أنا كوبا

من الشاى الأسود الثقيل ! »

فحكّت المرأة رأسها برهة ، ورمقت الكعكة الدسمة الغارقة

في الشراب والسكر ، ثم قالت تزدرد ريقها الجارى :
« اتفقنا ! »

لكنها أردفت بسرعة ، وهي تهز أمام عينيه إحدى أصابع
الموز التي نبتت في كفيها الضخمة :

« لكن - ليكن في معلومك ... هذه المرة فقط ! من
جل عيونك ! »

فلم ينتظر « سوسو » ليسمع أكثر ... اختطف في سرعة البرق
كوب الشاي من فوق المنضدة ، وهرب به إلى ركن قبل أن تغير
« أم محمد » فكرها ، وراح يرشف منه الرشفة تلو الرشفة بصوت
منفر كالكبار الذين راقبهم مرارا وتكرارا بعيون واعية ،
وطالما هفا أن يقلدهم . ولف مزقة من جريدة كالفقاعة ينفث
دخانها الوهمى بين الفترة والفترة ، وهو يلوح يديه يتحدث إلى
الجدران والمقاعد عن الأولاد ... وخلفة الأولاد ... وتعب
الأولاد . ويهز رأسه بوقار - كما يفعل « عم دسوقي » - ويقص
كيف أنه اضطر إلى بيع معطفه في زههرير الشتاء لينفق ثمنه على
زوجته وهي تضع وليدها السابع ... ثم كيف ...

وجذبه صوت « أم محمد » من دنياه ، وهي تعان بحزم :

« حان ميعاد نومك . هيا يا « سوسو ! »

وقبل أن ينتحل عذرا يتماص به مما قُدِّر له ، أنقضت عليه ، وحملته حملا بين ذراعيها . فاستكان في استسلام ، لكنه قال متدللا ، وهي تهم بالخروج من المطبخ :

« خالتي أم محمد - مارأيك لو جلست بي على ركبتيك هنا حيث الدفء ... والجو ظريف ... فنقصي على حكاية حتى أنام - وأعدك وعد شرف أن أنام بسرعة - ثم لك بعد ذلك أن تحمليني إلى فراشي ! »

— « وهو كذلك ! » —

وعادت به « أم محمد » ثانية إلى المطبخ ، وجلست على مقعدها ، وراحت تمسح على شعره الغزير الناعم ، وتغمغم في صوت راتب :

« كان ما كان ، في سابق العصر والأوان ، لا يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام : كان هناك واحد غني - ولا غنى إلا الله - عنده بنت ... قمر ... يشوفها العاقل يحن ... ويشوفها العابد يحن ... ويشوفها ... »

وأغمض « سوسو » عينيه متناوما ، لكنه راح يعدّ في سره ألعابه ومجالاته وكراته ، حتى لا يغشاه النوم حقا . واسترسلت « أم محمد » تحكي له كيف أن ابن الإسكافي دون

غيره وقع من نفس البنت القمر موقعا حسنا ، وكيف أن أباهما
غضب عليها ، وسجنها في سرداب قصره الذي بنى جدرانَه وسقفه
من زجاج ، حتى يستطيع أن يزيح سجادة حجرته ويطل عليها يرى
ما تفعل ... ثم كيف أن الحبيب الملتاع تنكَّر في زى جارية
اشتراها الأب الغافل ووكل إليها - الحبيب المتخفي - خدمة ابنته
المسجونة ... وهكذا - وفغرت « أم محمد » فإها إلى أقصاه
كالبالوعة - وهكذا ... عاش الحبيبان في الثبات ... في ... في
الثبات والنبات ... وخلفا ... و ... وخلفا ... صبيانا ... و ...

وبطؤ صوت « أم محمد » شيئا فشيئا ، ثم انقطع وقد ثقل تنفسها
وعلا شخيرها .

ففتح « سوسو » عينا حذرة تبرق ، وراح يترقب . حتى إذا
ثبت لديه نومها ، انزلق بخفة الفأر من فوق حجرها ، وجاء بمقعد
آخر وضعه أمامها ، ثم حمل قدميها ، قدما قدما ، برفق متمهلا ،
ووضعها عليه حتى تستريح المرأة في استلقائها فيعمق إغفاؤها .
وبعد ذلك تسلل خارجا من المطبخ ، وأغلقه خلفه بالمفتاح .

وانفلت إلى شرفة البيت الخارجية ، وجلس على السلم الرخامي
وكفه على خده . ولم يطل به الانتظار ، فلم تابت امرأة تلتفع
بملاءة سوداء أن دفعت باب الحديقة ودخلت .

وكانت الشمس قد غابت وراء تلال الرمال في تلك البقعة
النائية من « المطرية » وخيمت على الكون غبشة كسته كآبة
ورهبية في الفترة القصيرة حين الغروب ، وقبل أن تطل النجوم
من سماءها .

وانكمش « سوسو » على نفسه بمسكنه ، وأذناه مرهفتان ،
وعيناه وراء أهدابها ترقبان كل خطوة تخطوها المريية الجديدة
متردة تنلفت حولها . حتى إذا وضعت قدمها على أول السلم ،
فتعثرت في جسم لين ، أجفلت وضربت صدرها بكفها تهتف :

« بسم الله الرحمن الرحيم - من أنت ؟ »

فسلط « سوسو » عليها عينيه المستديرتين مشحونتين بكل
سذاجة الدنيا ، وهمس وشفته تراقص كأنما سيكي :

« أنا ... أنا « بيومي » الخدام ! »

فابتسمت له - وكانت زنجية وجهها سمح - ابتسامة ضاءت
كل قسماتها ، وسألته مترفقة :

« ولم تجلس هنا في البرديا بنى ؟ »

« إني خائف - فأنا وحدي هنا في هذا ... » ومط عنقه

يتناول نحوها : « في هذا البيت ... الكبير ... المسكون »

فعبست المرأة ورددت :

— «بيت مسكون؟ اللهم احفظنا!»

وجلست إلى جانبه تحل نقابها، و«سوسو» يتأملها ويعجب
لكثرة الأحجية والأقراط الفضية والذهبية ذات الجلاجل
والخرز الأزرق التي تزين أذنيها وأنفها وعصابة رأسها، ولكن
خاتما كبيرا من النحاس الأحمر له مكان الفص منه قرص مستدير
عليه نقوش عربية ورموز هو الذي تسمر عليه بصر «سوسو» .
وكانت المرأة تضعه حول سبابتها . فأشار إليه «سوسو» وتساءل :
— « ما هذا يا خالتي؟ »

فشهقت المرأة، وسحبت يدها بسرعة بعيدا تخفيها بخمارها،
وتتمت والذعر يملأ مشاعرها :

— « دستور يا أسيادي ! دستور يا أسيادي ! العفو ! العفو !

طفل صغير غريب ، السماح ... السماح ! »

وبصقت خلفها بصقة وأمامها خمس بصقات ، وربت
الأرض إلى جانبها تستسمح أناسا مستخفين، وقد ركعت على ركبتيها
كأنما تصلي ، وراحت تطوح رأسها يمينا وشمالا كمن يسبحون لله في
حلقة ذكر . ثم تئابت بصوت عال تثاروبا طويلا عويضا تقلصت
معه عضلات وجهها ، وكاد شدقاها يتمزعان من عنف ما تجاهد .
وجأة هدأت ونظرت حولها تبسمل وتحوقل ، وتمسح وجهها

براحتها ، كأنما تفيق على الفور من نوم . ومالت على
«سوسو» تهمس :

« مرة ثانية يابني لا تسأل عن شيء » يخصهم « ! » .
فاتسعت حدقتا «سوسو» دهشة وهو يسأل في إصرار :
« من هم الذين لا يجب أن أسأل عن شيء » يخصهم « ؟ » .
فجحظت عينا الزنجية ، وتلفتت حوايلها مضطربة مترقبة ،
تقول بصوت يرتجف :

« دستور يا أسيادي - دستوركم ! دستور ياسيدي
« أبو لحاف » ! دستور يا ستي « أم غرارة » ! دستور
يا « قطاهش » ياملك الجن ... يا ... ! » .

وطرق سمع «سوسو» حينئذ سعال خشن متقطع أتاه من
داخل البيت ؛ فعرف أن جدّه قد استيقظ ؛ هو دائما ينام من
بعد الغداء إلى الغروب . سيطلب الآن كوبا من الليمون
الساخن الذي يشربه الساعة السابعة مساء بالضبط . وسيسب
وسيلعن عندما لا تجيبه « أم محمد » إلى طلبه سريعا ؛ ولكن -
ما حيلتها وباب المطبخ مغلق عليها ؟

وعلا السعال واقترب ؛ ورأى «سوسو» بعين خياله جدّه
يهبط السلم من الدور العلوى إلى الردهة ، يدور ويلف فيها مناديا ؛

فهبّ من جنب المرأة، وقفز يعبر الشرفة إلى داخل البيت؛ فبعبته
المرأة دون سؤال ولا جواب .

وهناك، في الظلمة المطبقة، وظلال قائمة تتراقص على الجدران،
رأياه: شيخا ضامر الجسم، حافي القدمين، يرتدى جلبابا فضفاضا
أبيض، ويدس رأسه حتى أذنيه في قلنسوة صوفية يترجح في
أعلاها زر في نهايته كرة صغيرة من الصوف .

ولم يكن جدّ «سوسو» قد أضاء الردهة حيث وقف ينفث حُمَمَ
غضبه على كل خلق الله بلا استثناء، فارتمى «سوسو» على المرأة يختبئ
فيها: فأحاطت الزنجية كتفيه بذراعها في تحنان، وهمسست:
«مم تخاف؟ أعفريت هو؟» .

فأعمل «سوسو» عقله سريعا؛ وأجاب دون تردد:

«نعم... نعم... هو عفريت! عفريت والله العظيم! شبح
صاحب البيت السابق الذي... الذي خنقه اللصوص في فراشه!» .
فأصطكت أسنان الزنجية من شدّة الرعب، وتقهقرت
ترتجف وتتحنس مواقع قدميها:

«عفريت؟ عفريت؟ نهار أسود! والله... إنّ بدني... ليس

خالصا! دستور... دستور يا أسيادي!» .

وصاح الشيخ وهو يزحف نحوهما:

« سوسو ؟ أهذا أنت ؟ » .

فهمس « سوسو » وهو متعلق بالزنجية :

« أسمعين ؟ أسمعينه ينادى ابنه ؟ أكبر الظن أننا سنرى

الآن عفرينا صغيرا يخرج إليه ! » .

فلم تجب المسكينة إلا بغرغرة من حلقتها عميقة كالجمل المذعور ؛
وتحشرجت أنفاسها واتسع منخراها ؛ وأيقظ الصباح « أم محمد » في
مطبخها ، فهبت تعالج فتح الباب قسرا . وزاد ذلك الطين بلة ، إذ
تسمرت عينا الزنجية الجاحظتان على كرة الباب التي تتحرك وحدها بشدة
وعنف . وتراقصت أمامها شياطين زرق وجرم وخضر لا حصر لها .
وصرخ « سوسو » - ليزيد الجور رهبة - صرخة مدوية من
صرخاته الشهيرة ، قفّ لها شعر المرأة المسكينة ؛ ثم أشار
« سوسو » وهو يرتدى عليها يحتمى بها - أشار إلى « أم محمد » بثيابها
الفضفاضة البيضاء ، وقد خرجت إلى الحديقة بعد أن استعصى
عليها باب المطبخ ، وصعدت إلى الشرفة تطرق زجاجها ليفتح لها
من الداخل ... وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمل أعصاب الزنجية
المنهارة ، فهوت على ركبتها تعول وتنشج بعصبية واهتياج .
فاتهز « سوسو » فرصة اقتراب أذنها منه ، وهمس فيها :
« أترين هذه الجنية السمينة ؟ هي أمي - كانت طاهية ، فانفجر

فيها موقد الغاز فسات محروقة ! .

فهوت الزنجية على وجنتها لظما وخمسا ؛ ثم هبت ضارية ،
وانقضت على الباب تفتحه على مصراعيه ، ومرقت منه مروق
البرق تفرّ هاربة بجلدها من البيت ... وقفزت السلم الخارجيّ
مَثَى مَثَى ... وأعملت قدميها ركضا ... تقع وتقوم ... وتقوم
وتقع ... وتللم نفسها وملاءتها ... وهي تصيح بأعلى صوت :
« أنقذوني يا خلق الله ! أنقذوني من بيت العفاريث هذا ... !
دستور يا أسيادي ! دستور يا أسيادي ! » .

ووقف « سوسو » ساذجا ألّوفا إلى جانب « أم محمد » بعينيه
المستديرتين ، ووجهه الشاحب النحيل ، يتمصص مثلثذا قطعة
كبيرة من الحلوى أخرجها من جيب منامته ؛ وراحت الطاهية
تضرب كفا بكف ، وهي ترقب المريية الزنجية ، وقد وصلت إلى
نهاية الشارع ، وما زالت تركض .. وتصرخ .. وتقع .. وتقوم ..
فقالت « أم محمد » تتمصص شفثها عجباً ، وتأنؤد بعنتها :
« لاحول ولا قوة إلا بالله ! ما لها هذه المرأة ؟ مجنونة هي ؟ » .
فقضم « سوسو » سعيداً هائثاً قضمة سخية من الحلوى ، وهضعها
يلوكها متمهلاً بعض الوقت ، قبل أن يجيب دون أدنى اكتراث :
« أظن ذلك ! » .

الجنس الضعيف

تمطى الليل خفاشا هائلا كسلان، وبسط جناحيه بتردد متلقفا
ينتظر - لا أحد يدري ماذا - قبل أن يطوى الكون كله .
وغرقت الطبيعة في صمت عميق يخيل للرهء أن الدنيا جمعاء قد
توقفت عن الوجود .

وتلكأت الساعات طويلة لانهاية لها كأنما تنخبط ، لا تستبين
طريقها في الظلام المطبق . وفجأة شق السكون صياح هزتين
تتشاحنان في عنف وصخب ، ثم أمسكت إحداهما بخناق الأخرى
لحظات لم تلبث المغلوبة بعدها أن انفلتت هاربة تعرج في انكسار ،
وقد ضمت إحدى قوائمها إلى بطنها ، تشيعها الظافرة بسيل من
السباب والتهديد . فنبج ضجراً كلب أرمتي ضخم من الجيرة ، تعرفه
كلتاها جيداً ، فخرستا على الفور ، وانتهت المعركة عند ذلك الحد .
فابتسم « حسن » وتراجع عن النافذة يغتمها تأهباً للنوم .
وما كاد يخطو نحو فراشه ، حتى تسمر مكانه ، ويداه على أزرار
منامته يصيخ . لا - لم تخدعه أذناه . كأنما شخص هناك على باب

الشقة ينقر عليه بإصبع حريصة . ترى من يكون طارق الليل

هذا؟ ها هو ذا يعيد الكزة . لم لا يقرع الجرس؟

أنهى « حسن » حيرته ، وخرج من حجرة النوم إلى الردهة

وأضاء نورها وهو ماز بها ، فغمر المكان ، وشتت الخيالات من

الأركان المظلمة .

وتحسس مسدسه في جيبه قبل أن يجذب الباب ويفتحه فجأة

لتعثر داخله امرأة متلفعة بملاءة سوداء ، تغطي وجهها بنقاب

يستره كله .

انتظر « حسن » يرقبها وهي تلبس شتات نفسها وثيابها ،

ثم سألها : « من أنت؟ » .

فلم تجبه ، بل راحت تحل نقابها وتخلع عنها ملاءتها ، ثم وقفت

أمامه مكشوفة الوجه .

كانت امرأة نَصفا سمراء تميل إلى السمنة ، يغلب عليها قصر

القامة . فبسطت ذراعيها وكفيها أمامه في حركة معبرة ؛ وهي تقول :

هأنذى بين يديك يا سيدي ، خالية الوفاض . لا سلاح معي

ولا سكين ؛ لا تخش شيئا ، فما جئتك إلا مستنجدة لا متهجمة .

تقدمت خطواتين وهي تسائل من فوق كنفها :

« أسمح بربع ساعة من وقتك الثمين أسرّ إليك أمرا ... أؤمن؟ » .

وغمرت بعينها ، وأبرزت نابها الذهبي في ابتسامة مغتصبة ،
فغضّ الشاب بصره وقال باقتضاب :

« تفضلي ... وأوجزي » .

وتبعها إلى حجرة مكتبته .

وهناك لم تضع المرأة وقتا . فما جمعتهما الحجره حتى ارتمت

على قدمي « حسن » تقبلهما وتروح مولولة :

« زوجي يا خلق الله ... زوجي ! ويلي من خيانة الرجال !

زوجي « المعلم حنفي » يقترن الليلة بسواي ! الخائن ... النذل ...

الجبان ! بعد معاشره خمس وعشرين سنه وأنا أخدمه ، وأحمله على

رأسي أسعى معه للرزق ، ينبذني حذاء قديما ويعقد على فتاة في

مثل سن ابنته يبني بها الليلة ! آه يا ناس من النار التي تنهش قلبي ! » .

وهبت تدور حول نفسها وتدف يديها كأنما تستجلب برها

لوقدة شعورها . فدفعها « حسن » مترفقا خارج الردهة وهو

يقول بصوت يشوبه ضيق :

« ألهذا السبب تزعجيني وتقلقين راحتي يا امرأة ؟ اذهبي ...

اذهبي عني ، فما كنت مأذون شرع ولا قاضي غرام » .

— « سيدي ... الرحمة ... الرحمة ! » .

فأجاب « حسن » بحزم :

« الرجل لم يأت ما يعاقب عليه القانون . وليس من اختصاص ضابط مباحث مثل تلك الأمور التي لا تسوى إلا وديا .
ثم أضاف :

« الجئي إلى شيخ حارتكم يصلح ذات بينكما .
فتشبثت المرأة بيديه لا تخلى سبيلهما ، وركزت قدمها لا تزحزح من مكانها :

« رويدك سيدى ... رويدك ؛ صبرك على ؛ أستحلفك بكل غال ألا تتعجل بطردى ، فان تندم على تمهلك .»

فعمد «حسن» ذراعيه على صدره مصطبرا ؛ أمأهى فكفكفت بكها دموعها التي أغضبته ، وتحنحت تلتق برأسها إلى الخلف ، فكأما ألفت عنها الحزن والضعف ، فقد برقت عيناها ، وتحفرت أساريرها ، وتمرت حركاتها وهي تميل نحوه هامسة بهمك :

« شيخ حارتنا ؟ وماذا فى استطاعة المسكين أن يفعل حيال الشيطان الذى هو زوجى ؟ » .

ومطت عنقها تتأوّد به يمينا وشمالا :

« أين الانتقام يا حبة عيني ؟ لمن خالق ؟ المشيلاقي الضعيفات المهضومات الحق سلاح سواه تكيل به الصاع صاعين لظالمين ؟ » .
فلوى «حسن» ذراعها بعنف :

« ماذا فعلت بزوجك يا امرأة ؟ » .

فتقلص وجهها ألماً؛ ولكنها لم تحاول تخليص ذراعها من قبضته:

« لا شيء ... اطمئن » .

ثم كشرت عن نواجذها في بسمة رهيبة :

« لكنك أنت ... أنت يا حضرة الضابط الذى سيصيبه

بسوء ... وأى سوء ! »

وقهقهت بضحكة خشنة جوفاء لا أثر لمرح فيها ، كصدى

حجارة تتساقط داخل إناء نحاسى صدئ .

فتملبل « حسن » مغیظاً من غموض المرأة وتلاعبها بالكلام :

— « أفصحى » .

وتجهم وجهه :

— « لقد بدأت أضيق بك وبروايتك التى لا أظنها إلا فارغة

القالب والمعنى » .

فعلا صوت المرأة وبج في انفعالها وثورتها :

« فارغة ؟ خذ عندك إذن ! » .

وحشرت رأسها بين كتفيها السمينتين كمدفع يتراجع لينطلق ،

ثم اندفعت ، بكل جارحة فيها ، قذيفة تنفث حممها :

« القشّاط ... كبير تجار المخدرات ... هو عينه زوجى « المعلم

حنفي ، الجزار الأشهر على سن وروح الذي لم يره رجال الضبط
ولا عرفوا شكله قط وإن حفظوا اسمه عن ظهر قلب . دؤخ رجال
المباحث سنين طوالا وكان الفضل في إفلاته كل مرة - ولا نغر -
لى أنا وحدى . فلقد كنت دائما ولا زلت ساعده الأيمن ، نكوت
معا شركة لا ثالث لها . إذ أنى رفضت إشراك أحد معنا يكفى أن
تخونه شجاعته مرة فيكون هلاكنا وضياع هيبتنا إلى الأبد .
— « هكذا ؟ » .

وسحب « حسن » مقعدا جلس عليه يتأملها باهتمام .

— « إى والله . وقد ثبت بعد نظرى وحسن تقديرى للأمر ، فلم
يحدث قط أن هاجمتنا قوة من رجال الشرطة . كيف ولم تحم حولنا
أى شبهة ؟ حتى أهل حارتنا لا يعلمون من أمرنا شيئا » .

فحاول « حسن » إخفاء دهشته وهو يسألها :

« كيف ذلك ولا يخفى عادة على جارة شأن من شؤون

جارتها ؟ » .

فارتفع حاجب الداهية ، وربتت كنفه كأنما تحابى طفلا :

« اسم النبى حارسك . شباب لم تزل والله . ولكن الحق كله

معك فى تعجبك فلن يخطر لك أبدا على بال نظام معيشتنا الدقيق

الذى وضعتة بنفسى وسرنا عليه لانحيد عنه قيد أملة . أولا : أقننا

في حيّ واخترنا زبائن من حيّ ... بل أحياء أخرى بعيدة لانظلمهم
على محل إقامتنا لكثرة تنقلنا ولكي لا يستطيع أحدهم أن يسعى
بنفسه وراء « راتبه » ولو تأخرنا عنه أياما لسبب أو آخر . ثانياً :
على الرغم من إدمان معظم أهل حارتنا الحشيش لم يكن زوجي
- الذي اشتهر بالصلاح بينهم - يشترك في اجتماعاتهم ، ولم أسمع أنا
مرة بعقد جلسات - ولو ودية على سبيل المحاباة - في بيتنا . ثم
ضحكت وأردفت : « فأنت ترى أن سمعنا قشدة وشهد في
الحي كله ! » .

فازدرد « حسن » ريقه ، وسألها كأنما يتلقى درسا عن أستاذ :
« ولكن البضاعة ... كيف ... أعني ... من كان

يتسلها منكما ؟ »

-- زوجي المعلم حنفي « نفسه . كان يسافر في أنحاء البلاد لشراء
عجول يذبحها وبيعها في حانوته فيعود بها هي و« الرزم »... أما الرحلات
« الصعبة » فكنت أقوم أنا بها . فأستخفي في زى قروية تارة ،
وحضرية أخرى ، وابنة بلد أصيلة بملاءتها الحريرية السوداء وتنهيا
تارة ثالثة ، وأروح أذرع أرض الله من « الإسماعيلية » إلى
« الإسكندرية » ومن « دمياط » إلى « رشيد » أتجر في السمن وأدس
في صفائح « التراب » أو أشترى « بيعة » بطبخ وشمام أفرغ جوفه

وحدى في ظلمة الليل وأملأه حشيشا . إلى آخر تلك الأساليب التي لا يعجز عقل مثلى أن يتمخض عنها .

وصمت برهة ترمقه بنظرة تلونها سخابة من السخرية شفاقة . ثم سأله بدورها :

« ألا تسألني أيضا كيف كنت أوزع البضاعة ؟ »

فزم « حسن » شفته ولم يجب ، لكنها تبرعت بالتفصيلات كمن يمين بحسنة على سائل :

« كنت أفرش مشنة بالحشيش ، وأهيل فوقه حزم الفجل والجرجير ، ثم أتمايل بها على رأسى بنت ريف ذات دلال - مرة لا أعيدها . ومرة غيرها أحشو ملء حلة كرنا أجوب بها الحارات منادية فيخرج المدمنون كالجرذان من أوكارهم ويتبعوننى عن بعد أفرادا وجماعات حتى أخط رحلى فى زقاق أختاره لساعتى ربما لم تطأه قدمى من قبل ، فأجلس القرفصاء والحلة أمامى أبيع كرنا محشوا بالحشيش . ولم يكن رجال الشرطة يعيروننى أدنى اهتمام ، فليس هناك وجه للغرابة البتة فى امرأه لم يروها من قبل - ولن يروها بعد ذلك أبدا - مهلهلة الثياب تبيع العمال محشوا ساعة الظهيرة عند خروجهم من المصانع . »

فتشاغل « حسن » بقلم رصاص يخط به خطوطا عرضية على

ورقة أمامه وهو مطرق ، كله آذان . أما هي فبسطت كفها السمينة
تعدّ على أصابعها :

« ومرة أنا شحاذة أدبّ على عصا مجوّفة ملأى بلفائف « الغالى »
ومرة أنا طبالة فى موالد الأولياء أينما كانوا : فى « دسوق » ،
« طنطا » ، « إنبابة » ، « الأنفوشى » . وفى أفراس بنات العمدة
والأعيان أنا « المعلبة » رئيسة فرقة الراقصات والمغنيات أحيى
الحفل وأحمل إلى رب الدار « راتب » عام ، وأقبض الثمن وأعود
به إلى زوجى » .

ثم تنهدت بحرقة :

« أهلكت روحى تعباً ، ونهكت جسدى هرولة هنا وهناك .
وعلام هذا كله ؟ ماذا أفدت ؟ ماذا جنيت ؟ » .
وتمصت شفيتها :

« على رأى المثل : قال ضرّة وحياة مرّة ! »

ثم هبت مسعورة ذئبة ضارية وقد تقلصت سحنها :

« ولكن أبدا ... ومن خلقك ! أيا كلنى لحما ويرمبنى عظما ؟ »

ثم ضربت صدرها بقبضتها كقروء الغاب عند النزال : « أنا ،
النمسة » والأجر على الله ! » .

فقاطعها « حسن » :

« قصارى القول ، لقد حكمت عليه لخيانته وجنتى واشية » .
فلوحت بيدها مولولة :

« عيني علينا يا صنف النساء... لا حول لنا ولا قوة... مساكين! » .
ثم أضافت :

« هو الذى حكم على روحه يا حضرة الضابط » .
فابتسم « حسن » :

« تمام . ولكن كيف تثبت عليه التهمة وليس فى داره
حشيش ، ولا يحمل معه شيئا منه كما تقولين ؟ » .

فتمايلت تباها وغمزت بحاجب ولمزت بعين :
« توكل على الله وعلى » .

ثم سألته : « كم الساعة الآن ؟ »
فلما أجابها :

« الواحدة بعد منتصف الليل »

... عم وجهها بشر وهنت :

« هذا ومن خلقك خير وقت وأنسبه للقبض على زوجى ... »

الآن وبسلامته يجلس مزهوا منتفخ الأوداج وسط ضيفه فى
حفل زفافه » .

ثم جذبت « حسن » بغتة من ذراعه بانفعال كأنما أغضبته

الصورة التي رسمتها بنفسها ، وقالت تحضه على الخروج :

« هيا ! يطيل عمرك ربنا ... هيا بنا يا حضرة الضابط إلهي
ينجيك لشبابك ولا يحرق لك قلبا ! » .

ونفثت عن فؤاد كليم :

« هيا قبل أن يفلت الطير ! » .

وفتحت رقطاء هاججة :

« الفاجرة ! قال تأخذ طيري وتنام على خيرى ! » .

ووثبت تنشب أظفارها في الهواء تنهشه وتمزعه .

« أبدا ... لن يكون ! أنا على وجه الأرض ويفلت من يدي ؟

أبدا ... أبدا ! » .

— « كفى يا امرأة عن الصخب والزعيق . الدنيا ليل وصوتك

العالي أسمع الجيرة لا ريب . ماذا يقول الناس ؟ آهدنى شيئا ،

وكليني : من أدراني أن بلاغك ليس كيديا ؟ لن أخطو خطوة

معك قبل أن تتجمع لدى الأدلة الكافية المستوفاة » .

فدست المرأة على الفور يدها في عبا وأخرجت رزمة ورق

دفعتها إليه وهي تقول :

« هاكها : كشوفا ببيان الوارد إليه من حشيش خلال سني

اشتغاله بالتجارة فيه ، وأسماء التجار الذين باعوه إياه ، وإمضاءاته

جنباً إلى جنب مع إمضاءاتهم .

فسحب « حسن » من بينها وريقة زرقاء استرعت انتباهه ،
وغنم وهو يحاول قراءتها :
« وتلك ؟ » .

— آه ... هي رسالة بخط يد زوجي إلى تاجر فلسطيني يطاب
منه فيها صنفا بعينه من الحشيش لشخصية كبيرة من زبائن حانوت
الجزارة الذي يستر وراءه . وكان قد بلغني بأ عزمه على الزواج
بغيري وطلاقي إكراما لعينيها . فكظمت غيظي ولم أطلعها على
وقوفي على خيائته وغدره ، وقزرت الانتقام في الحفاء . عيني علينا
صنف النساء ... جنس ضعيف !..»

وتمصت شفيتها حسرة وألماً . فقاطعتها « حسن » :
« وبعد ؟ » .

— « فلما أعطاني زوجي الرسالة آمناً لألقيها بنفسي في
صندوق البريد كالمعتاد ، احتفظت بها واستكبت كاتباً أجيراً
نسخة طبق الأصل منها أرسلتها ؛ إلا أني غيرت تاريخ اليوم
الذي يطلب فيه زوجي وصول البضاعة إليه ، حتى يوافق يوم
زفافه بالضبط . » .

وقهقهتُ بجذل وتشفٍّ ، ثم أضافت :

« وناهيك ما حدث » .

— « ماذا حدث ؟ » .

— « ما وصل التاجر الفلسطيني بالصفقة إلى « السويس » حتى أرسل برقية إلى زوجي . فجن جنونه ، وأسقط في يده ، وجاءني مهرولا يسعى إلى صالحي ، واندفع يقبل يدي ورأسي ، ويتوسل ويلحف في الرجاء أن أسافر أنا لتسليمها مكانه : فرفضت طبعا وأسمعتة وإخوتي والحبيبات من جاراتي ما يعجبك من ألوان السباب المنتقاة - التي تثلج الصدر ، وتزيل عن القلب غمته !

فاضطرّ هو إلى السفر صباح يوم زفافه - اليوم - وتسلم البضاعة وعاد بها إلى بيته . أتسمعي يا حضرة الضابط ؟ البضاعة في بيته الآن ! لم يجد بالطبع الوقت لتصريفها فأخفاها لديه - لأول مرة في حياته - حتى يبني بعروسه ... وصرت على أسنانها تضغط بيدها قلبها : « وحتى يرى له فيها أمرا من غده ! » .

وكان « حسن » يتصفح الأوراق مليا خلال حديثها . فما فرغت من روايتها حتى دس المستندات في جيبه ، وقد ثبت له خطرهما ، واختطف معطفه وطربوشه وخرج وهو يصبح بالمرأة : « هيا بنا ! سأمرّ في طريقنا على المركز ، أصطحب قوة بعد

أن أستصدر أمرا بتفتيش بيته فوراً! .

فتبعته ، متمرة خطواتها ، تقول :

« ماذا كان في وسعي أن أفعل غير ذلك ؟ الآن سيتشام بالعرس عندما يقبض عليه ليلة زفافها فيتركها ويعود إلى - إلى أحضاني - أنا ؛ رقيقة عمره وعمله ! وعندما يخرج من السجن سيجدني في انتظاره على الباب بفرقة موسيقى « حسب الله » المعتبرة ؛ وطافات الفلّ والريحان يحملها إخوانه شمعان الحى ، والأغاريد تنطلق ، والطبول تقرع ، والرقص قائم على قدم وساق - فوق العربات - منى ومن صاحباتى ! .

ثم تهتت ونظرت حولها ، وهما يحثان السير فى الليل البهيم مع ثلة الجنود التى انضمت إليهما ، وغمغمت كأنما تحادث الأشجار المستخفية فى الظلال :

« وسيجد من كفى هذه ... » - وربتها - « خير متكأ لرأسه

الكليل ! » .

فزجر جندى متجههم السحنة كثر الشارب والحاجيين :

« ألا تغلقى فك الكريه يا امرأة ؟ » .

فاستدارت إليه :

« مالك ومالى ؟ هل سلطك أحد على ؟ » .



فاستدارت إليه : مالك ومالي ؟ هل ساطك أحد علي ؟

— «عجيبه! أنحاجيني؟» .

فشهقت تصيح بسخرية :

«ولم لا؟ أحترم هذا؟ أمتنوع؟ أمحال؟» .

فتدخل «حسن» :

«صه... صه! اسكت أنت وهي!» .

فاقتربت «التمسة» منه بتأدب :

«يحميك لشبابك تطمئنني... أيسجن طويلا... زوجي؟» .

فضحك «حسن» ضحكة صغيرة :

«ألم تبلغك الأحكام الجديدة؟ خمسة عشر عاما، أو خمسة

وعشرين عاما، أو... إعدام! كلُّ ونصيبه!» .

فتوقفت المرأة بغتة عن متابعتهم حتى سبوتوها مسافة، تنظر

حواليها، حيوانا سقط في فخ، مرّة أمامها ومرّة إلى يمينها، ثم إلى

شمالها، وطويلا.. خلفها، لا يدرى أحد بالضبط ما يدور بخلفها .

فأشار «حسن» إلى جنوده الذين اصطفوا إلى جانب، على

حين صاح يناديها :

«ماذا حدث؟ أخدش قدمك شيء... شوكة مثلا أو قطعة

زجاج؟ بربك أسرع حتى لا يفوتنا الزفاف!» .

فانقضت للحظتها تدبّ بغلّ تهب الطريق نهباً :

« صدقت . هيا ... لنسرع ! إلهي لا يحرق لك كبدا ! » .

ثم أردفت تتحدث لمن يوّد أن يسمع دون استثناء :

« وماله ... السجن ؟ على الأقل أعرف مكانه ؛ لا يروغ مني !

وكل أسبوع أزوره ، وأحمل له من الطعام أطيبه ومن الفاكهة

أشهاها ! أما إذا شنقوه ... » وابتسمت في الظلام تنهد بارتياح :

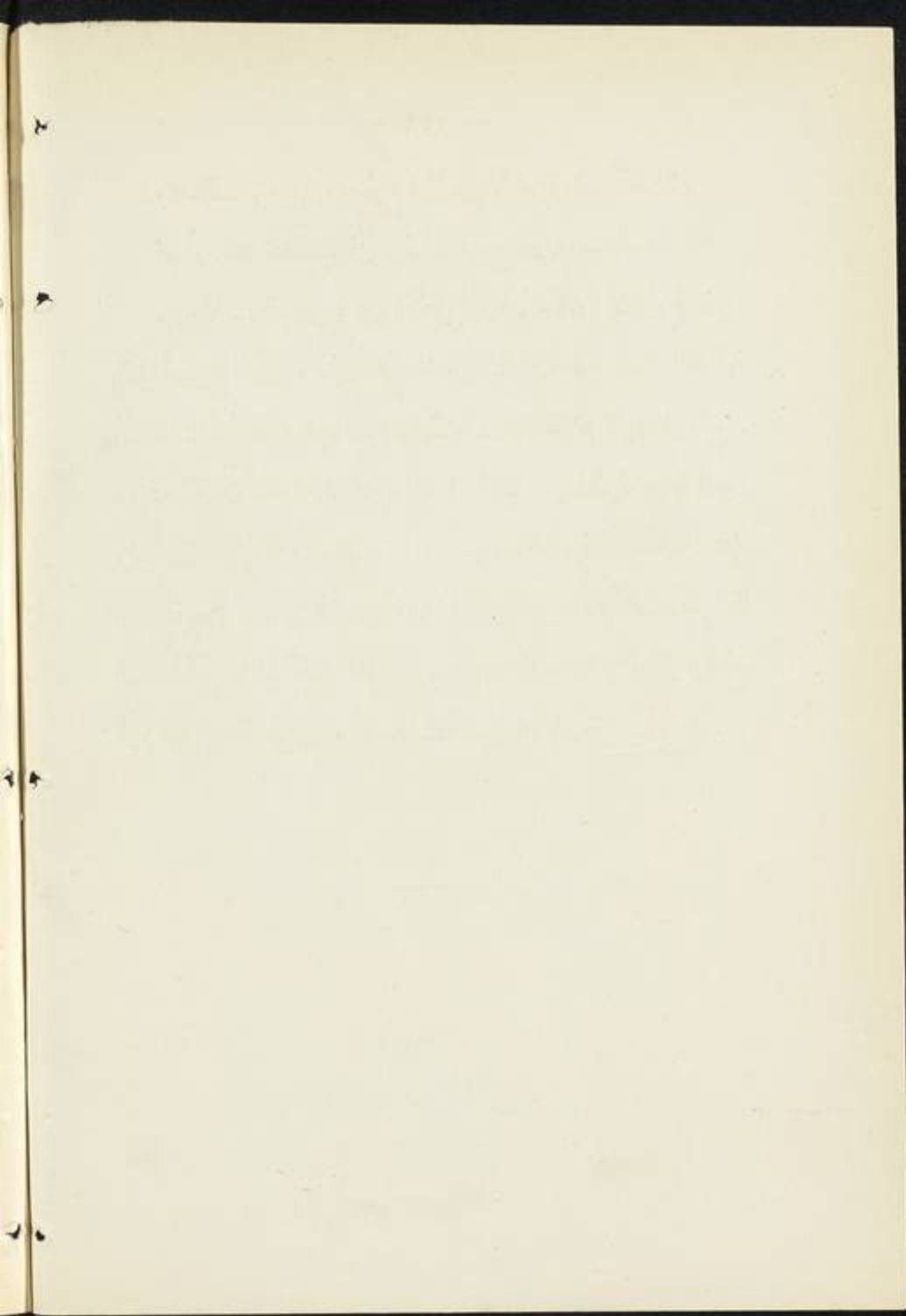
« فهذا يكون خيرا ... إى والله ! فحينئذ لن تطوله قوية العين

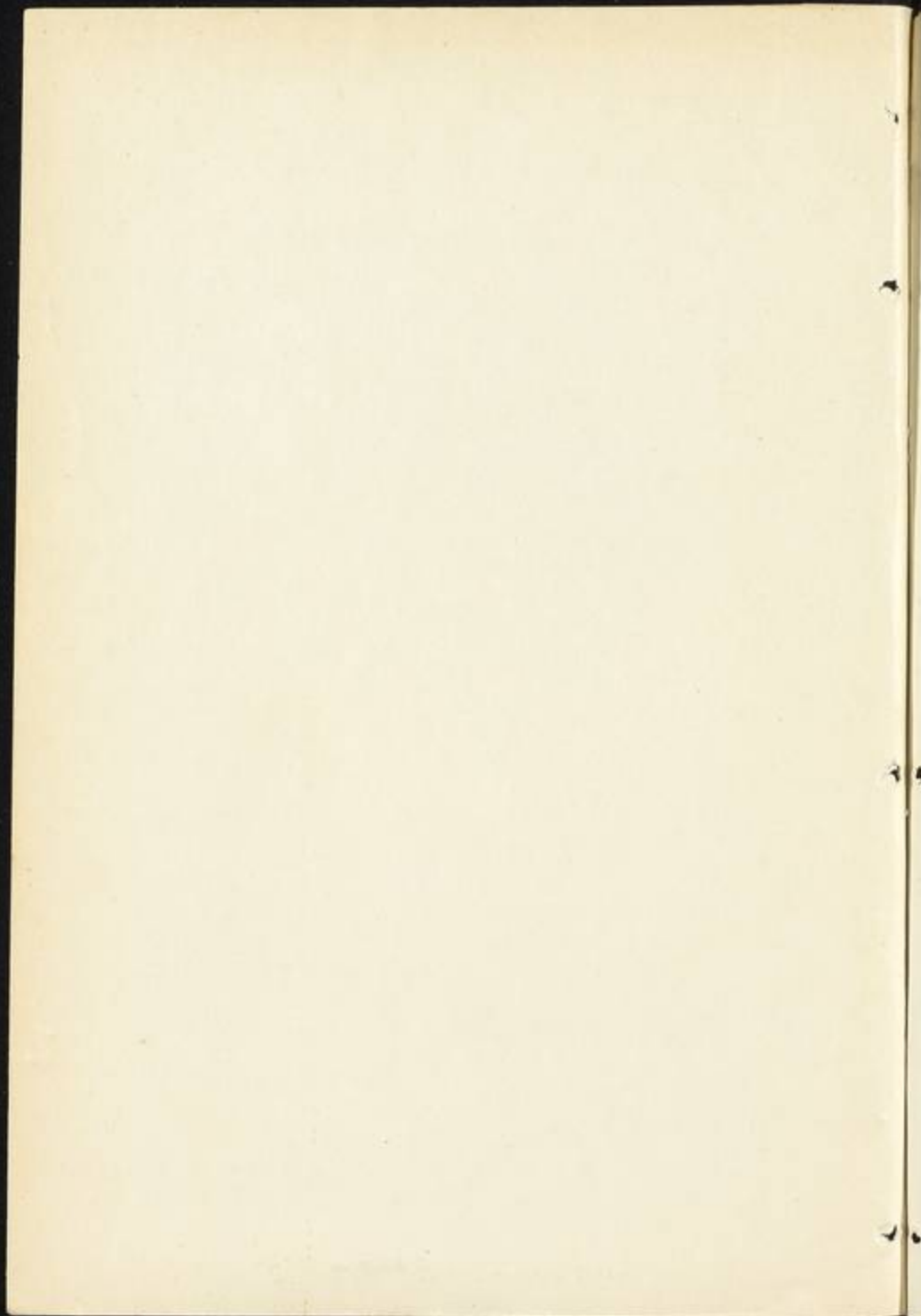
« لو احظ » بل تنزوى بحسرتها ، وسوء فألها ، وقلة حظها ؛ على

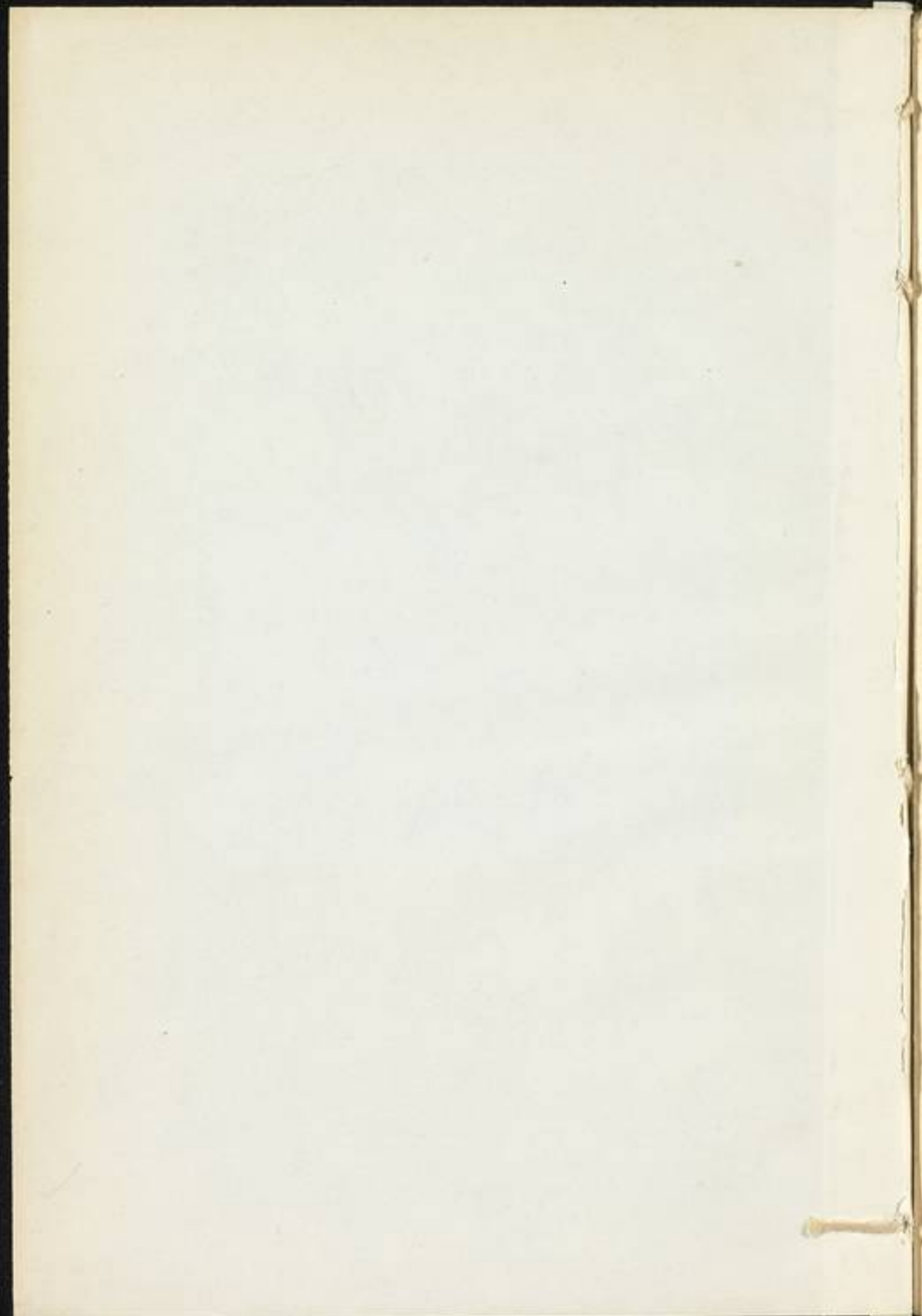
حين أقيم أنا له مأتما نخمها من أول الحارة لآخرها ، وأنصب سرادقا

فسيحا آتى له فيه بكبار المقرئين ، وأزور قبره محملة بالفطائر والبلح

أوزعها صدقة على روحه ! حقا ... أليس هو زوجي - أنا ؟ ! » .







2

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072236613

